رحلاتي

في الدول الإسلامية



ومضات برقت عبر سنين مضت

د. محمد بن موسى الشريف

رحلاتي

في الدول الإسلامية

تأليف

محمد بن موسى الشريف

الطبعة الأولى للناشر

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

رقم الإيداع : ١٠٣٩٩ /٢٠١٧

الترقيم الدولي: 978 – 977 – 6981 – 59 – 3

مركز إبصار للنشر والتوزيع

القاهرة – العجوزة - شارع المنتصر

محمول: 00201143749293

E.mail:ebsar2015@Gmail.com



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذه صفحات من حياتي - هي القسم الأول من ذكرياتي[١]- التي عنونت لها بعنوان جامع لأجزائها الثمانية وهو «ومضات برقت عبر سنين مضت»أردت أن أعرضها على الناس بُغْيَةَ تحقيق عدة أمور منها:

١- توريث التجربة لغيري من الناس بُغْية المشاركة في الفائدة [٢].

٢- ومن أجل استلال العبر والعظات من ثناياها.

٣- ومن أجل أمر مهم آخر ألا وهو البناء على ما فيها من أخبار العمل الإسلامي، فإن هناك علة في كثير من العاملين وهي أنهم يستأنفون العمل في كل جانب تقريبًا أرادوا أن يعملوا فيه، ولا ينظرون لخبرات الآخرين ولا لتجاربهم الماضية، مما ينشأ عنه ضياع للجهود، وهدر للأوقات.

ولقد قرأت مذكراتٍ كثيرةً لأناس شتى مسلمين وغير مسلمين -

---

(١) سآتي على ذكر الأقسام الأخرى لذكرياتي بعد عدة صفحات إن شاء الله تعالى.

(٢) لقد تحدثت في قضية التوريث وأهميتها في رسالة منفصلة فمن أراد الرجوع إليها وجد تفصيلاً أوسع، إن شاء الله تعالى.

يتحدثون فيها عن بلادنا الإسلامية- فرأيت فيها أخبارًا جليلة وأعمالاً كثيرة، ونصائح عديدة، وأفكارًا وآراء لو أخذنا بها لكان حالنا اليوم غير الحال، لكننا ضربنا صفحًا عنها أو لم ندر بها فذهبت أدراج الرياح ويا للحسرة، واقرأوا على سبيل المثال ما كتب في قضية فلسطين من مذكرات تُعد بالمئات - مطبوعة- وربما ضعفها أو أكثر ما زال مخطوطًا، وفي تلك الكتب خطط إنقاذ، وصيحات تحذير، وآراء حكيمة، ونصائح عاقلة، واستشراف للمستقبل، وفضح لمخططات الأعداء، فماذا صنعنا بهذه الكتب؟ وماذا عملنا بتلك الثروة الهائلة والتركة الرائعة التي أصبحت أو قاربت أن تصير ضائعة؟ وإنا لله وإنا إليه راجعون، هذا وإن الأمم التي لا تستفيد من أعمال حكمائها ومقدميها وعظمائها لهي أممٌ بائسة لا تصل حاضرها بماضيها، ولا تستفيد من تجاربها الماضية، ولا تعي ما جرى عليها، وأوضح مثال على ذلك الشعوب التي ابتليت بمحنة الاحتلال الطويل وجرت عليها نكبات كثيرة ، وسُطِّر كثير من ذلك في صحائف تعد بعشرات الآلاف فماذا جرى عليها؟ وهل اطلعت عليها الأجيال التالية؟ وهل استفادت منها تلك الدول وبنت عليها خططها الحاضرة والمستقبلة؟ الإجابة لا شك أنها مؤلمة - في قسم الشعوب العربية على الأقل- خاصة أن الجيل الحالي لا يقرأ إلا قليلاً، وجُلّ من يقرأ من أولئك القليل لا يصبر على القراءة المطولة، ولا يقدر على التحليل والربط والتنظير بين الأحداث - جمع النظير إلى نظيره- وليست هذه المهمة موكولة لجهة تقوم بها وتهتم بشأنها -فيما يبدو لي على الأقل- فكانت النتيجة المؤلمة أن تلك الأحداث العظام يوشك أن تُنسى، ولا يبعد بعد ذلك أن تضيع وتُرمى[1]، وإنا لله وإنا

---

(١) بعض رؤساء الدول لا يريد نشر أخبار الاحتلال حتى لا يقوم في شعبه من يطالب المحتل بالاعتذار والتعويض، وهذا أمر سياسي محرج لساسة تلك الدول التي كانت محتلة.

إليه راجعون.

٤- إن كثيرًا من أحداث هذا الكتاب - القسم الأول من الذكريات- إنما هي أحداث جديدة، نسبيًّا، يمكن الاستفادة مما فيها، وتدارك النقص الذي بينته فيها، والأخذ ببعض ما فيها من أفكار، والاستجابة لبعض ما فيها من نصائح، إن رُؤي أن كل ذلك صالح للأخذ به.

وأكثر مَن قرأت مذكراتهم قد سطروها بعد وقوع أحداثها بعشرات السنين مما جعل أكثر ما فيها من أخبار لم يعد له صلة بواقع الناس الذين يقرأون هذه الذكريات، وهذا يقلل الفائدة المرجوة منها.

٥- المشاركة في نقد الصحوة المعاصرة وإقامتها على الصراط المستقيم الذي يرجى معه أن تبلغ مرادها وتقطف الثمار التي تريدها، فهذه الصحوة الجليلة التي نفيء إلى ظلالها منذ خمسين سنة تقريبًا هي ثمرة جهد طويل وعمل جليل سبق ظهورها بقرن تقريبًا، ولما برزت وانتشرت كان المرجو أن تؤتي أكلها وأن تبلغ مداها، وأن تصل إلى مرادها، لكن هذا لم يحدث لما أصابها من أمراض، واعتراها من نقص، وشابها من فتور ، وطرقها من ضعف وتخاذل وتهاون، لذلك كله لم تحقق ما أريد منها، فلذلك وجب على القائمين على شأن هذه الصحوة ومقدميها وعقلائها أن ينقدوا المسيرة، وأن يجبروا تلك الكسيرة، وأن يعملوا على التدارك، وما كتبته في هذا الكتاب إنما هو مشاركة يسيرة، وعطاء قليل، لكن يُرجى أن يسد شيئًا من الثغرات، وأن يقيل بعضًا من العثرات، والله المستعان[1].

---

(١) سأكتب في الصحوة بتفصيل واسع إن شاء الله تعالى، وأنا أعد ذلك الآن وأهيئه والله المسئول أن يُتم عليَّ نعمة الانتهاء من هذا العمل الجليل.

٦- إن المرء لا يدري متى يأتيه الموت، والتعجيل بإخراج ما اكتمل خير من التأخير إلى مدة غير معلومة، ولربما هجم الموت فجأة فضاع كل ما كتب، كما وقع لكثير جدًّا من المشايخ والدعاة وطلبة العلم في الماضي والحاضر.

ولهذه الأسباب الستة عجلت بإخراج هذا القسم قبل غيره، والله الموفق.

عملي في هذه الذكريات:

قد قسمت أحداث الذكريات إلى ثمانية أقسام، وهي:

القسم الأول:

وهو هذا الكتاب، وهو جملة من الرحلات التي قمت بها في أرجاء الأرض، ورأيت أن أظهرها للناس لأسباب ذكرتها آنفًا، وهي رحلات قمت بها في أكثر من خمس وثلاثين سنة - منذ سنة ١٣٩٩هـ /١٩٧٩م- إلى يوم الناس هذا، وما كنت أظن أني سأكتب عنها يومًا من الدهر صفحات، لكني لما رأيت أن فيها شيئًا يمكن الاستفادة منه - على النحو الذي ذكرته آنفًا - عملت على نشرها تباعًا في حلقات[1]، ثم جمعتها في هذا الكتاب بعد تنقيحها وتهذيبها، وإذا اجتمع غير ذلك من الرحلات فسألحقها في طبعة قادمة أو أجعلها جزءًا آخر إن شاء الله تعالى.

---

(١) قد نشرتها مجلة «المجتمع» الكويتية من قبل باسم «أيام في...» وهذا العنوان معبر عن الواقع، فأكثر ما سطرته كان حصيلة مكثي أيامًا في ذلك المكان. وألح عليَّ بعض الناس أن أنشرها، فرأيت الاستجابة لمرادهم على النحو المذكور في التقسيم فوق، وأضفت على ما نُشر في المجلة إضافات كثيرة، وهذه الإضافات هي تذكر لأمر قد نسيته، أو مزيد نظرٍ لما كتبته، أو غير ذلك من الوجوه المستفادة من إعادة النظر فيما كتب من قبل.

القسم الثاني:

هو ذكر لجانب من سير الرجال العظماء والنساء العظيمات ممن لاقيت في حياتي وعرفت، وحرصت على ألا أورد شيئًا إلا ما رأيته فيهم أو سمعته من كلامهم، أو سمعته ممن أثق بحسن نقله عنهم وهي أشبه بالعبر والعظات منها بسيرة شاملة وترجمة كاملة، فهذا ليس مرادي، وإنما صنعت ذلك لأني أخشى أن تضيع تلك السير أو بعض أحداثها، فرأيت أن أوردها براءةً من التبعة التي تلحق بالمؤرخين، وتخلصًا من المسئولية الملقاة على عاتق المتابعين للأحداث والشخصيات ومستقي العبر والعظات منها.

وهذا الجزء سأرجئ إخراجه حتى حين، لكن أُعده على مُكث ومهل، وأَعُدّه من القُرَب التي أدخر ثوابها لما بعد انقضاء الأجل، فإني أرى - والله أعلم- أن إخراج سير العظماء من أعظم الأعمال، وأنفعها للأجيال، وإذا صحت النية فهي مجلبة للأجور إن شاء الله تعالى.

هذا وقد وقفت في حياتي على دقائق من عظمة أولئك وعلى تفاصيل من سيرهم أرى - والله أعلم- أنها جديرة بالنشر، وأن الأجيال ستستفيد منها إن شاء الله، لكني أرجو من القراء أن يمهلوني قليلاً، فإن الظباء قد تكاثرت على خراش، وتهافتت عليه الأعمال تهافت الفَراش، والله المستعان.

القسم الثالث:

وهو الذي يحوي التسلسل المنطقي والطبيعي لحياتي منذ الميلاد والنشأة، والتحولات التي حصلت، والأحداث التي طرأت، ورأيي في تلك التحولات والأحداث، وفي ذلك القسم - أيضًا- سأذكر -إن شاء الله تعالى- كل ما مرّ عليّ مما يهم عامة القراء، وهذا قد بدأت في إعداده، وأخذت في تهيئته لكني سأخرجه

خاتمة للذكريات، وهذا كله ربما يستغرق وقتًا طويلاً، والله أعلم، وليس ذلك للانشغال فقط لكن لجملة أسباب أخرى، منها:

١- إني الآن هاجم على السادسة والخمسين من عمري، وأحب أن أرجئ ذلك بضع سنين إن شاء الله تعالى، وما أحسن صنيع من يكتب ذكرياته بين الخمسين والستين، وحواسه باقية، وذهنه حاضر، وفيه بقايا قوة من مدة الشباب قد مزجها بحكمة الكهل وتجاربه.

وقد ذكر أحد المشايخ سيرته وهو في بداية الثلاثينات من عمره!! فعجبت وقلت: هلا انتظر عشرين سنة أخرى؟! فلربما تغيرت أفكاره أو اهتزت قناعاته، أو تحولت أحواله.

٢- إن كثيرًا من تلك الأحداث لا يسوغ نشرها الآن لسبب أو لآخر، فلعل تأخير إخراج هذا القسم أولى وأحسن، والله أعلم.

٣- إني لأرجو إن شاء الله تعالى أن أعيش حتى تكتمل تجاربي، وتعظم حكمتي، وتغزر معرفتي، وترتقي أفكاري، وكل ذلك سينعكس في مرآة الذكريات قوة ونضجًا.

- القسم الرابع: مذكرات طيار، وقد صدر
- القسم الخامس: رحلتي في القراءة، وقد صدر
- القسم السادس: رحلتي في طلب العلم وقد صدر
- القسم السابع: رحلتي في التأليف، وقد صدر
- القسم الثامن: رحلتي في التعليم والإعلام، وقد صدر، ولله الحمد والمنة.

فهذه إذن هي ذكرياتي، ستنزل إلى الأسواق جزءًا إثر جزء وكتابًا بعد كتاب، أرجو أن يتقبلها الله تعالى مني بقبول حسن، وأن ينفع بها سائر عباده،

وأن يرزقني فيها الإخلاص وصدق اللهجة وسلامة المعلومات من الخطأ، والنقص والزيادة.

هذا وقد رأيت أن أقسم هذا القسم - وهو الرحلات - إلى ثلاثة أقسام:

١ - رحلاتي في الدول العربية.

٢- رحلاتي في الدول الإسلامية.

٣- رحلاتي في الدول غير الإسلامية.

هذا وإن حصل في هذا الكتاب نقص ونسيان، أو حكم على أحداث أو أشخاص بهوى أو هو من النفس طغيان، أو قصور في النظر والتحليل والبيان، أو إظهار لمنقبة نفس أو احتفال بعمل فإنما هو من نفسي الأمارة بالسوء ومن الشيطان، وأبرأ إلى المولى منه، وأطلب من القراء الصفح والغفران، فإن هذا من جملة طبائع الإنسان، الذي طبع على حب الهوى وعلى النسيان، وأعوذ بالله من طغيان القلم وجموح النفس ورؤية العمل.

هذا والله أعلم وأحكم، وأجل وأعظم، وصل اللّهم وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه حامدًا مصليًا

العبد المذنب الضعيف

محمد بن موسى الشريف

mhmalshareef@gmail.com

www.altareekh.com

http://www.youtube.com/maltareekh

TWITTER.com/DRMOHAMMEDMH

www.facebook.com/mhmaltareekh

١- أيـــام فـــي أسطنبـــول ١/٢

شددت الرحال إلى تركيا في صيف ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م لحضور مؤتمر النورسيين السنوي، وهو مؤتمر خاص يدعون له بعض أهل الرأي والفكر، ويجعلون اليوم الأخير منه للجمهور، وقد جئتهم معقبًا على بعض ما طرح، وكنت قد شاركتهم في عام ٢٠٠٥م ببحث لكن لم يقدر لي الحضور معهم فبعثت به إليهم.

وقد تحدثت إلى جمهور النورسيين في اليوم الأخير من المؤتمر، وأثنيت على المصلحين ومن أهمهم «بديع الزمان النورسي»، وقلت لهم: إنكم تتباهون وتفتخرون لأنكم نورسيون، لكن ماذا صنعتم لإكمال عمل النورسي ومسيرته وجهده؟ وضربت لهم مثلاً بقولي للجزائريين لما زرتهم: أنتم تفخرون بأنكم أبناء وأحفاد للمليون ونصف مليون شهيدفماذا صنعتم لإكمال مسيرة هؤلاء الشهداء العظام؟ وكذلك قولي لأهل اليمن لما زرتهم: أنتم تفخرون بمدح رسول الله ﷺ لكم، لكن هل عملتم من العمل ما تحققون به مقتضيات هذا المدح الذي مُدِحَه أسلافكم في دنيا الناس اليوم؟

رحلة عبر التاريخ:

وكنت قد زرت معرضًا تاريخيًّا مهمًّا رأيت أن أبسط فكرته للقراء الكرام، لأنه أعظم ما لفت نظري وأعجبني من المشروعات والمعارض التاريخية التي رأيتها، وهو مشروع لطيف مبتكر اسمه «تركيا الصغرى»، حيث قد جمعت كل

آثار تركيا في مكان واحد!! وصنع المهندسون الأتراك مثالاً لكل الآثار التاريخية المتناثرة في البقاع التركية الواسعة، ووضعوها في مكان واحد في العاصمة إسطنبول، وهو مكان فسيح مكشوف يدخله الداخل ليسير في مسار محدد له، يشاهد به جميع هذه الآثار في نسق مرتب بديع، وتذكرة الدخول تتضمن مفتاحًا «شفرة» بعدة لغات، فإذا أخبرت بائع التذاكر بلغتك أعطاك التذكرة، فتقف أمام الأثر وتدخل التذكرة في آلة صغيرة فتتحدث عن الأثر باستفاضة باللغة التي اخترتها.

مساجد ومتاحف:

وخلال زيارتي للمتحف توقفت عند «مسجد السَليمية» أعظم الآثار في مدينة أَدِرْنة القريبة من الحدود البلغارية، وهو باسم السلطان سليم الثاني، بني خلال الفترة من ١٥٦٨-١٥٧٥م تحت إشراف المهندس المبدع «سنان» الذي بنى معظم الآثار التركية الفاخرة، وهذا المسجد يعد من جملة آثاره الفاخرة، وقد بناه في آخر أيامه فجاء خاتمة إبداعاته.

ثم مررت بالجامع الضخم (أُولو جامع) في بورصة، وكانت عاصمة للدولة العثمانية قبل إسطنبول، وافتتح سنة ١٤٠٠ هـ بأمر يزيد الصاعقة، ولما دخل تيمورلنك بورصة منتصرًا على الدولة العثمانية أمر بإحراقه، ثم جُدد بعد ذلك في عهد محمد الأول.

ثم مررت بـ«مسجد علاء الدين» في قونية، وهو من الآثار السلجوقية الباقية، فالسلطان علاء الدين سلجوقي، وبدأ بناء المسجد في عام ١١٥٥م وانتهى عام ١٢٠٠م!! في عهد السلطان «كيقباذ الأول»، وجدد مرات كثيرة

عبر القرون وأضيف إليه أبنية، وهو أقدم مثال على هيئة البناء العربي للمساجد في الأناضول.

ثم مررت ببناء غريب، بني في جوف جبل، وهو مخبأ فيه، بحيث إن القائم على الجبل البالغ ارتفاعه (١٣٠٠م) لا يدرك أن تحته بناءً هائلاً على هذا النحو، وهو معبد بني عام ٣٨٥م، وهو بناء عجيب غريب.

ثم مررت بمدينة ماردين، وهي مدينة قائمة منذ عهد الرومان، ومرت بعهود الفرس والبيزنطيين والسوريين والعرب، وبيوت المدينة مبنية من الصخور، وهي متراصة على هيئة غريبة بحيث لا يحجز بيت بيتًا، فكل البيوت في الواجهة!!

ثم مررت بمسجد السليمانية نسبة إلى السلطان سليمان القانوني أكبر سلاطين آل عثمان وإن لم يكن أفضلهم وقد توفي سنة ٩٧٤هـ بعد أن حكم ٥٠ سنة، وجامعه الضخم في إسطنبول وبني بأمره وبناه المعماري المميز «سنان» في ذروة أستاذيته، وبني خلال المدة من ١٥٥٠م-١٥٥٩م، وزخرف المسجد من قبل فناني عصره، والمسجد مشهور بنظام التهوية المبدع، وفيه أربع منارات فيها عشر شرفات ترمز إلى أن السلطان سليمان هو السلطان العاشر العثماني، وقد جلب الرخام الأبيض من جزيرة مرمرة، والرخام الملون من بقايا مدينة بلقيس من اليمن، والرخام الأخضر من جزيرة العرب.

ومررت بمسجد أيوب سلطان كما يسمونه، وهو الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه والذي أمر ببنائه هو السلطان محمد الفاتح حين فتح إسطنبول ووقف على قبر أبي أيوب ،رضي الله عنه، وكان قد أوصى بدفنه

عند أسوار القسطنطينية حين كان يحاصرها مع الصحابة والتابعين زمن الخليفة معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنهما- وهذا المسجد هو أول مسجد بني في إسطنبول، ثم أعيد بناء المسجد زمن السلطان سليم الثالث.

ثم مررت بمسجد السلطان أحمد الأول الذي بني عام ١٦٠٩م وسماه الأوروبيون (الجامع الأزرق) وذلك لكثرة وجود البلاط الأبيض والأزرق داخل جدرانه، وهو المسجد الوحيد في تركيا بست منارات، وقد أقيم على أنقاض قصر بيزنطي قديم، وقد صليت في المسجد مرارًا، وهو آية في الجمال سواء في بنائه أو في موقعه الفريد أمام مسجد أيا صوفيا ويطل على البسفور.

مسجد في إسطنبول:

ثم مررت بقصر توب كابي (الباب العالي) حيث كان يقيم السلاطين، وهو مبني على مساحة ٧٠٠ هكتار على تل في إسطنبول، وقد بدأ بناؤه في زمن السلطان محمد الفاتح ما بين عامي ١٤٦١ - ١٤٦٦م، ومنذ عهد السلطان محمد الفاتح عاش في هذا القصر ٢٤ خليفة أو سلطانًا مع أزواجهم وأطفالهم وخدمهم إلى منتصف القرن الثالث عشر الهجري - التاسع عشرالميلادي، واليوم هو متحف يضم بعض الآثار النبوية الشريفة وكثيرًا من الآثار التاريخية الأخرى.

ثم مررت بمجسم أيا صوفيا، وهو كنيسة ضخمة بناها جستنيان الأول البيزنطي سنة ٥٣٧م، وقد سقطت قبتها عدة مرات، وآخر مرة أعيد بناؤها سنة ١٣٤٦م، وقد أجريت عدة تقويات وترميمات للمبنى في العهد العثماني، وقد غير السلطان محمد الفاتح المبنى ليكون مسجدًا، وأضاف إليه منارة، ثم أضيفت إليه منارة أخرى زمن السلطان بايزيد الثاني، وقد كان أيا صوفيا

مسجدًا لمدة ٤٨١ سنة ثم حوله أتاتورك -عليه من الله ما يستحق - إلى متحف عام ١٩٣٤م.

التاريخ العثماني خارج تركيا:

وهناك مجسمات عديدة أخرى أضرب عن ذكرها صفحًا للإيجاز، لكني لا أستطيع أن أغادر الحديث عن المجسمات دون ذكر المسار الفريد الذي ضم أهم آثار العثمانيين خارج تركيا، فمنه مجسم لقلعة أجياد في مكة التي هدمت قبل ثلاث سنوات، ومجسم للمسجد الأقصى الذي أعيد بناؤه في عهد السلطان سليم لما دخل مصر والشام فاتحًا، وجسر موستار العظيم الذي ليس له مثيل، والذي هدمه الصرب في حرب البوسنة، وبقي مجسمه!

وبهذا أتيت على سرد أهم ما مررت عليه من مجسمات في ذلك المكان الجميل ذي الفكرة الرائعة، فقد مررت على كل آثار الدولة العثمانية في أقل من ساعتين!

وهناك متحف ملحق بأرض العرض لم يتسع وقتي لزيارته، وأحيل زيارته لمن يزور تركيا بعدي إن شاء الله.

***

٢- أيــــام فــــي أسطنبــول ٢/٢

تركيا جوهرة من جواهر العالم الإسلامي، وإسطنبول درة تركيا الفاخرة، ففيها يلتقي الشرق وسحره وجلاله مع الغرب ورونقه وحضارته المادية، ويلف كل ذلك مآذن شامخات، بالأذان صادحات، يذكرنك بعظمة الإسلام وهيبته، وهي عاصمة الخلافة قرونًا، وهي المدينة التي قال فيها نابليون متحسرًا: لو أردت أن أختار عاصمة للعالم لاخترت القسطنطينية، وقد همّ بأخذها والتعاون مع الروس من أجل هذا فصرفه الله، وأوقع بينه وبين الروس وحشة ليسلم للمسلمين عاصمتهم.

وفي كل رقعة في تركيا آثار إما إسلامية وإما رومانية أو يونانية، وذلك لموقعها الاستراتيجي الفريد، وقد سبق أن ذكرت بعض تلك الآثار في الحلقة الأولى من (أيام في إسطنبول).

وإسطنبول تأسرك بعظمة مساجدها وشموخها وجلالها، وقد عمد السلاطين إلى بناء تلك المساجد في القسم الأوروبي من المدينة ليرسخوا الإسلام فيه، وتأسرك عظمة مسجد السلطان أحمد الذي يسميه الغربيون المسجد الأزرق لغلبة الزرقة على مبانيه الداخلية، ويشدك مسجد السليمانية باتساعه وجلاله، لكن ما من مسجد شدني وأثر فيّ مثل مسجد السلطان محمد الفاتح، في حي الفاتح من إسطنبول، ولا أذكر أني صليت فيه يومًا إلا وانهمرت دموعي، ولا أدري لماذا ألجلال بانيه؟ أم لروعة مبانيه؟ أم لعذوبة

أذانه؟ أم لجمال صلاته؟ لا أدري حقًا لكن الذي أدريه هو هذا الشعور الغريب الذي ينتابني كلما اقتربت من ساحاته العظام، وهو يمتاز عن أقرانه من الجوامع بأن الكفار لا يأتون لزيارته، ولا يزعجون المصلين بالولوغ في ساحته، وربما كان هذا هو سبب الشعور الذي ينتابني كلما صليت فيه إضافة إلى العوامل التي ذكرتها آنفًا، والله أعلم.

وأذكر أني قد صليت فيه في يوم الأحد ١٤٢٧/٦/١٣هـ صلاة المغرب، وقرأ الإمام من سورة غافر بصوته الشجي ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[غافر:١٨] إلى قوله تعالى ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ [غافر:٢٥] فتذكرت ما مر على تركيا الحديثة من أهوال الظالمين وكيف أغلقوا الجوامع ومنعوا الأذان بالعربية وحرموا على النساء الحجاب، وضيقوا على شعائر الإسلام كل التضييق، وتذكرت جامع الفاتح يوم كان يرفع فيه الأذان بالتركية نشازًا وقبحًا، ثم إن الله أهلك الظالمين وأعاد لتركيا وجهها المسلم، وها هي الصحوة قد غزتها فكثر من نسائها التحجب، وامتلأت الجوامع بالشباب والشابات، وفيها حكومة اليوم تحاول أن تعيد الإسلام إلى الحكم، وهذا كله لم يكن يدور في خلد أحد قط مهما بلغ به التفاؤل وخالطته الأماني والأحلام لكن هذا فضل الله تعالى ومنّه ورحمته بعباده، كل هذا مر في خاطري سريعًا عند ختم الإمام تلاوته في الفاتح: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾.

والجامع يقع في حي الفاتح، وهو حي يغلب على أهله المحافظة، وكثير منهم صالحون، وزينة الجامع الشيخ المعمر المبارك أمين سراج وهو قد ناهز

التسعين وما زال يدرّس فيه حفظه الله، وهو ممن أدرك زمان الهالك مصطفى كمال، الذي غرّب تركيا، ومحا معالم الإسلام منها ردحًا طويلاً من الزمان، وهي الآن تتعافى من آثاره، وتبرأ من أفعاله، وهناك يدرّس الدكتور حمدي أرسلان، وهو ممن تخرج في جامعة أم القرى، وللجامع أكثر من إمام، وقد عرفت إمامًا شابًّا فيه يسمى أحمد، وهو دمث الأخلاق، وقد أصعدني إلى سدة السلطان التي كان يصلي فيها، وإلى الجناح الذي كان مخصصًا لراحته فتذكرت أمجاد السلاطين العظام عليهم رحمة الله.

ومن عجائب ما وقع لي في هذا المسجد ولا أنساه أني كنت في سنة ١٤٠٧هـ تقريبا ١٩٨٨م قد زرت تركيا برفقة أصحاب لي مع عائلاتهم، وكنا قد استأجرنا حافلة كبيرة لتنقلاتنا، وزرنا بورصة ونزلنا مع حلول المساء، فصادف دخولنا إلى إسطنبول وقت المغرب، والمطر نازل بغزارة وقوة، فتملكتني إرادة قاهرة لم أدر سببها إلا بعد دخولي الجامع، تملكتني إرادة لا تُرد ولا تُدفع أن أصلي في الفاتح، وعرضت ذلك على أصحابي وكنت أمير الرحلة، فقالوا: إن الليل قد أقبل، والمطر غزير، ونحن متعبون، ومعنا النساء والأطفال، فقلت لهم: فلندع النساء والأطفال في الحافلة ولننزل نحن، وأصررت فلم يملكوا مع إصراري إلا الاستجابة، فنزلنا ومشينا مسافة طويلة بجوار أسوار الفاتح حتى ولجنا إلى ساحته ثم إلى الجامع، ففوجئت بأن الجامع مليء تمامًا، ولم يكن الجامع ليمتلئ في مثل ذلك الوقت بل حسبه أن يكون فيه صف أو صفان، ورأيت الناس قد رفعوا أيديهم يدعون ويبكون، وثلاثة من المشايخ في قبلة المسجد مستقبلين الناس يدعون ويبكون ويؤمّن الناس، فعجبت وجلست مع صحبي ندعو بدعائهم رجاء إصابة بركته لكن لا ندري ماذا يقولون، ثم بعد الفراغ سألت

من بجواري فقالوا: إن الناس اجتمعوا لصلاة الشكر بمناسبة استقلال أذربيجان، فعجبت من هذا وقلت: كم من الناس عندنا مَن سمع بأذربيجان أصلاً، أو سمع بها ولا يدري أين هي، وهذه عاطفة محمودة من الأتراك.

وقد حزنت لأن المسجد مهمل لم يلحقه ترميم منذ مدة طويلة، وهذا عجيب من المسئولين الأتراك الذين كان يجب أن تتوافر عنايتهم بهذا المسجد.

وأتوجه إلى المسئولين عن المساجد في تركيا لأقول لهم: لم لا تُعنون بالفاتح العناية الواجبة كما عنيتم بالسليمانية وجامع السلطان أحمد وغير ذلك من المساجد التي يتردد عليها السائحون؟ ولم نرى الإهمال يسود جنبات الفاتح، لم تصل إليه يد الترميم، ولم يوصل التغيير فيه بالتصميم؟ فالجامع اليوم في أمس الحاجة ليد العناية الحانية، وقرار الوزارة السامية التي تعيد له الاعتبار، وتسبغ عليه ثوبي العافية والاستقرار، فهل نرى هذا قريبًا؟ وهل نسعد بالجامع ليدوم قريبًا من القلوب حبيبًا، آمل ذلك، فقد درت في أروقته الخارجية فرأيتها آيلة للسقوط، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وصليت في مسجد أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، وزرت قبره الزيارة الشرعية، وقصته جليلة وهي أنه كان مع أول جيش غزا القسطنطينية زمان معاوية رضي الله عنه، وقد قال النبي ﷺ: «**أول جيش يغزو القسطنطينية مغفور لهم**»، فأدركته المنية هنالك فطلب من قائد الجيش يزيد بن أبي سفيان أن يدفن في أقرب مكان إلى أسوارها، ثم اندثر مكانه إلى أن عُرف زمان محمد الفاتح رحمه الله تعالى، فكان من حسناته أنه بنى مسجدًا هنالك وجعله في قبلة القبر حتى يخرج من الحرج الشرعي، وذهبت للصلاة في المسجد والسلام على ذلك الصحابي الجليل فجاءني رجل لطيف بشوش ورجاني أن أذهب معه

فاستجبت له، ومررنا بمقابر كثيرة خلف المسجد حتى وصلنا إلى مكتب له فإذا هو رئيس كشافة تركيا، وله صلات كثيرة بالعرب والمسلمين واسمه أمين أفندي، وقد أتعب نفسه جزاه الله خيرًا في خدمتي واستضافتي كلما عرف بوصولي إلى تركيا بعد ذلك.

ويسوء الزائر في تركيا رؤية السياح الأوربيين الشرقيين والروس الذين جاؤوا للفساد، كما يسوءه منع الكماليين الحجاب فيضطر الوالد للذهاب بابنته إلى ألمانيا وغيرها من دول الغرب لتدرس بحجابها بينما هي ممنوعة من الحجاب في دار الخلافة سابقًا فإنا لله وإنا إليه راجعون، فإن هذه من المضحكات المبكيات التي لم تكن تدور بخلد أشد الناس تشاؤمًا قديمًا، لكن هؤلاء اللادينيون هكذا يرون وهكذا يصنعون بحريات الناس.

وقد ساءني استمرار إغلاق جامع أيا صوفيا الذي أغلقه الهالك مصطفى كمال وحوله إلى متحف، هذا الجامع الجليل الذي حوله الفاتح من كنيسة يُشرَكُ فيها بالله إلى جامع يُعلَن فيه التوحيد، فأغلقه عدو الإسلام الأول في القرن الفائت، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي إسطنبول مُتحف جليل وهو متحف طوب قابي، وفيه آثار كثيرة إسلامية وهو واقع في مقر السلاطين الأتراك الذين كانوا يعيشون فيه سابقًا، وهو متحف جدير بالزيارة، حقيق بالتعهد.

ومما يُفرح في إسطنبول انتشار الحجاب بين الفتيات والنساء، وهذا أمر كاد يندثر قبل عقود قليلة، وهو من فضل الله تعالى على أهل ذلك البلد، لكن عددًا من النساء يخدشن هذا الحجاب بضيق ما يلبس وتعدد ألوانه تعددًا صرن فيه

كعارضات أزياء، ثم إنه من المعتاد في المطاعم والأسواق أن تجد امرأة محجبة وتدخن علنًا أمام الناس فأين الحياء؟! وما هذا الحجاب؟! وهل شرع الحجاب إلا ليكون حجابًا للنساء عن الرجال وحاجزًا فهل يتحقق الحجاب بهذه الفعال؟! وأين شروط الحجاب الشرعي؟!

وفي إسطنبول دور للمخطوطات الإسلامية هي في مجموعها الأكبر والأغنى في العالم، وسبب ذلك أن الكتب كانت ترد على الخلفاء من كل جهة على سبيل الهدية أو البيع، وأن الخلفاء العثمانيين في فتوحاتهم العربية الإسلامية كانوا يأخذون من العواصم التي يدخلونها عددًا كبيرًا من الكتب ويرسلونها إلى دار الخلافة، وكانت هناك حركة تبادل ضخمة للكتب بين العلماء في دار الخلافة وأقرانهم في ديار الإسلام؛ لذلك كله وغيره كانت تلك الدور للمخطوطات في مجموعها هي الكبرى في العالم كله.

وفي إسطنبول مناظر جليلة وجمال أخّاذ يصادفك أينما ذهبت، وهو شاهد على عظمة الخالق جل جلاله، فهناك البسفور وروعته، والبحر وجماله، والتلال وخضرتها المزدانة بالمآذن، وهناك بقايا سور القسطنطينية العظيم، ومناقل الماء التي كانت تنقل الماء من مكان إلى آخر بعيد.

****

أيـــام فـــي ماليزيـــا

زرت ماليزيا عشرات المرات على مدار السنوات العشر الماضية، وهي بلد متميز في الجوانب الآتية:

١- التقنية فيها متقدمة، وهي إحدى دول النمور السبعة في آسيا ومنها الهند وكوريا الجنوبية وتايلاند وإندونيسيا وماليزيا، وهذه هي الدول المرشحة لتنضم إلى العالم الصناعي الأول، وماليزيا في طليعة الدول الإسلامية، فهي من الدول المنتجة للسيارات وتسوّق عالميًّا، وهي من الدول المتقدمة في مجال الحاسب، وجامعاتها على درجة عالية من الجودة والإتقان والتنوع، وفيها صناعات متعددة مهمة، وهذا كله مجتمعًا لا أعلمه في دولة إسلامية سوى ماليزيا وتشاركها تركيا وباكستان وإيران، وهذا مما يرفع رؤوسنا نحن المسلمين؛ إذ طالما تألمنا من تخلفنا وضعفنا واتكالنا على وجه مخز على الشرق والغرب في كل شئون حياتنا الدنيوية تقريبًا، فنحن عالة عليهم في التقنية والأبحاث، والمنتوجات الغذائية، ووسائل المواصلات والاتصالات، إلى آخر تلك القائمة المهينة، فوجود دولة مثل ماليزيا بشارة خير في خضم هذا الظلام المخيم.

٢- عدد المسلمين فيها جيد، فهو قرابة ٦٠ ٪ وهم كلهم من الملايو، ويتبعون المذهب الشافعي، فهذا أدعى لاجتماعهم وعدم تفرق كلمتهم، وهي

خصيصة لهم لا يشاركهم فيها إلا قليل من الدول الإسلامية، وليس فيهم فقر مُدْقع معيب كما نرى في أكثر الدول الإسلامية تقريبًا، ومستوى أهل البلد في أكثرهم متوسط ماديًا، وفي بعضهم ثراء.

٣- هي البلد الإسلامي الوحيد الآن الذي يُبتعث إليه الطلبة من العالم الإسلامي، وهي خصيصة لها تشبه الاعتراف بريادتها وتقدمها، وهذا يدعو المسلمين عامة وقيادتهم السياسية والفكرية والعلمية خاصة إلى دعم هذه الدولة بكل ما يستطيعون ولو عن طريق زيادة البعثات والإكثار من عدد الطلاب والقيام بفتح فروع للجامعات الماليزية في الدول العربية والإسلامية أو تعميم التجربة الجيدة ليستفيد منها الآخرون، ولقد رأيت رئيس الوزراء السابق «محاضير محمد» يجول في بعض الدول الإسلامية ويطالب بالاستفادة من التجربة الماليزية.

٤- في ماليزيا ثراء وتنوع في مشاهدها وتضاريسها فهي تجمع بين الجبل، والسهل، والبحر، والبحيرات، والحدائق، والجنان، والمناخ البارد والمعتدل والحار، وفي طبيعة أهلها سلاسة وطيبة وحسن استقبال للوافدين والضيوف، والجريمة فيها تكاد تكون نادرة، وهذا عجيب مقارنة بمثيلاتها من الدول الإسلامية، وهذا كله يجعلها عامل جذب جيد بل متميز للآخرين، فيما يسمى بالسياحة، خاصة أن أسعار السلع والخدمات ليست مرتفعة بل معقولة.

٥- مساحة البلد مناسبة إلى حد كبير، فهي ليست كبيرة شاسعة يصعب ضبطها أو تتهددها الأخطار، وهي أيضًا ليست صغيرة ضعيفة محدودة الإمكانات، بل أرى والله أعلم أن مساحتها وعدد سكانها يؤهلانها لأن

تكون متميزة أكثر مما هي عليه الآن، خاصة أن القوم قد رفعوا شعار ٢٠٢٠ وهذا يعني أن ماليزيا ستغادر موقعها من دول العالم الثاني إلى دول العالم الأول في سنة ٢٠٢٠، وما ذاك عليهم ببعيد، إن شاء الله تعالى.

أما النقائص فهي كالآتي، وأتمنى أن تسارع الحكومة الماليزية للتخلص منها حتى تصير دولة نموذجية حقًّا:

١- ضعف المرجعية الإسلامية في ذلك البلد العزيز علينا، القريب من قلوبنا، فهي مكونة من عدة ولايات، وولايتان فقط من سبع هي التي تعمل بالشريعة: ترنجانو وكلنتن، أما سائر الولايات فهي متراخية في هذا الأمر، وليس في البلد رموز شرعية واضحة يرجع إليها بقوة، والخمر فاش في عاصمتها وعدد من مدنها، كما أنه ليس هناك شرطة آداب أو هيئة أمر بمعروف ونهي عن المنكر، بل هناك قوانين لمراعاة الآداب سُنت من قبل الحكومة لكن التطبيق العملي لهذه القوانين ضعيف نوعًا ما، خاصة أن في البلد ٤٠ ٪ من الكفار معظمهم من الصينيين والباقي من الهنود، وهذا مؤثر ولا شك في درجة الانضباط في البلد.

٢- البلد تعاني من تغريب ثقافي واضح، بل اكتساح للأسلوب الغربي في الحياة والمتعة والضعف الروحي، وهذا بسبب ضعف المرجعية وغياب الرموز الشرعية كما ذكرت سابقًا، وبسبب غياب البديل الإسلامي الواضح، وبسبب ضعف العلم الشرعي عند أكثر أفراد الشعب الماليزي وضعف الوعي الإسلامي العام.

٣- مشاركة الماليزيين في الهم الإسلامي العام محدودة، فبينما نرى كثيرًا من

البلاد الإسلامية تشتعل بالمظاهرات والاعتراضات على الحوادث الرئيسة السيئة التي تجري في العالم الإسلامي نرى أن إخواننا الماليزيين في أكثرهم يجابهون ما يجري بنوع من البرود وقلة الاكتراث، وهذه مشكلة ظاهرة فيهم تحتاج من قادة العمل الإسلامي هناك إلى وضع حلول قوية ناجعة لتجاوزها.

٤- الهزة التي تعرض لها الأخ أنور إبراهيم وحزبه تلقي بظلال كثيفة على مصداقية النظام السياسي الماليزي، إذ صار يتصرف كأنه إحدى الدول العربية البوليسية في التخلص من الخصوم، وهو بحاجة إلى إصلاح هذا الأمر؛ فالمسلمون ينظرون إلى هذا النظام على أنه واحة للأمن السياسي والحفاظ على حقوق الناس وكرامتهم.

وأيضًا يدور في البلاد همس حول بعض مظاهر الفساد الإداري أرجو أن تقضي عليها الحكومة؛ لأن تقليص الفساد الإداري إلى أدنى حد ممكن هو شرط للتقدم والانعتاق من التخلف بل الوصول إلى مصاف الدول الصناعية كما يؤمل الماليزيون ويريدون.

وكل ما سبق كان نتيجة لقاءات بإخواننا الماليزيين وغيرهم ومحاضرات ودروس، وخلطة بالعامة والخاصة، فلم يكن رأيًا سانحًا ولا نظرة سطحية، وأسأل الله لهم التوفيق.

****

أيام في ترنجاو

ترنجانو اسم غريب لعالم سعيد، فهي ولاية في ماليزيا من ولاياتها الثلاث عشرة، ويحكمها الحزب الإسلامي حكمًا فدراليًا، ولا يحكم الحزب الإسلامي سوى ولايتي ترنجانو وكلنتن فقط، والولايتان تحرم فيهما الخمور تحريمًا باتًا وتمنع فيهما مظاهر الفساد والفحش، وينعمان بحكم الإسلام، ولو أخلص الحزب الإسلامي واتقى الله - تعالى- في حكمه فسوف تصبح الولايتان في المستقبل القريب بإذن الله تعالى أحسن ولايات ماليزيا وأكثرها انتعاشًا اقتصاديًا،ألم يقل الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[الأعراف:٩٦].

وترنجانو كانت بوابة لدخول الإسلام إلى جميع جزر الملايو التي تتشكل منها اليوم إندونيسيا وماليزيا وبروناي وسنغافورة، وكانت هناك عدة بوابات أخرى غير ترنجانو.

وسكان ترنجانو أكثر من تسعين بالمائة منهم مسلمون، وفيها من مظاهر الإسلام ما لايكاد يوجد في غيرها من الولايات، إلا «كلنتن» فإني لا أستطيع الحكم عليها لأني لم أزرها.

والحجاب ظاهر متفش في ترنجانو يُسَر به المرء ولله الحمد، والمساجد كثيرة وجميلة خاصة مسجدها الجامع الذي بني فوق الماء، والأذان يتردد في

جنباتها ويصدح في طرقاتها، والقوم ودودون أليفون على عادة سائر شعوب الملايو، ابتساماتهم تسبق أحاديثهم وتتخللها وتختم بها، والبلد آمنة كل الأمان، مطمئنة كل الاطمئنان، وطبيعة بلادهم ساحرة رائعة، فالمناخ مقبول، والغابات منتشرة، والولاية مطلة على بحر جميل وهبهم الله إياه، وتلحق بها جزر رائعة.

لكن مما يكدر على الزائرين أن جماعات من كافري الغرب والشرق يؤمون هذه الجزر بلباسهم الذي لايكاد يستر شيئًا، فالسائح الزائر الذي يذهب بأهله وأولاده يجد حرجًا في الذهاب إلى تلك الجزر لما فيها من مخالفات شرعية ومناظر مؤذية، وليت حكومة ترنجانو تصنع شيئًا لإبعاد أولئك إلى أماكن أخرى، إذ لو صنعوا لأمّ تلك الجزرَ جماعاتٌ كثر من المسلمين وعائلاتهم الذين يرغبون في الاستمتاع بتلك الطبيعة الرائعة بدون تعكير صفوهم قدر الإمكان، وهذه نقطة سوداء في صفحة ذلك البلد البيضاء.

والعزاء لهذا أن في البلد بحيرة ضخمة جدًّا بنيت عليها مجمعات سياحية جميلة، وفيها ما يرغب فيه السائحون وتقر به أعينهم، ولقد زرت مجمع «كيينر» المقام على هذه البحيرة وتحدثت مع القائمين عليه وهم يعدون فيّ جملة الصالحين، ويرغبون في زيارة المسلمين من العرب لهم وقد استمتعت وأهلي في ذلك المكان ولم يكدر صفونا سوى حادثة جرت على ابنتي الطبيبة عائشة - حفظها الله تعالى - التي كانت صغيرة آنذاك فركبت دراجة فسقطت فكسرت ثنيتها، والحمد لله على كل حال.

وأنا أدعو إخواني الذين يسافرون كل سنة إلى ماليزيا فيتنقلون بين كوالالمبور وجزيرتي لنكاوي وبينانج أدعوهم إلى أن يزوروا ترنجانو أيضًا،

فهي لا تبعد عن كوالالمبور سوى قرابة ست ساعات بالسيارة والطريق إليها رائع، وزيارتهم لها تثبيت لأهلها، ودعم للحكم الإسلامي فيها، وإنعاش لاقتصادها، وتنويع في المناظر، وترنجانو أصلح للصالحين، وخير للملتزمين، وأفضل للباحثين عن الهدوء، والراغبين في الاستمتاع بما وهبه الله تعالى إياها من جمال، والله الموفق.

****

أيـــام فـــي قزقستـــان

أكرمتني مؤسسة «طيبة» الخيرية العالمية بدعوة كريمة لزيارة آسيا الوسطى، وهي المناطق التي طالما رغبت في زيارتها، فهي التي خرَّجت لنا آلاف العلماء والأبطال والشجعان، وتركت لنا من الكتب ما لا يحصى، وفيها من تاريخنا جزء مهم عظيم.

وآسيا الوسطى هي اليوم قزقستان وقيرغيزستان وأوزبكستان وتركمانستان وطاجيكستان، وهذه الجمهوريات هي المكونة لتركستان الغربية، أما تركستان الشرقية فهي اليوم بيد الصينيين عجَّل الله فرجها، وهي الجمهوريات التي رزحت طويلاً تحت الحكم الروسي الذي بدَّل معالمها، وأفقد أكثر أهلها دينهم وتراثهم وعاداتهم وتقاليدهم، وأفقرهم فقرًا شديدًا.

ولم يكن ذلك مرتبطًا بالروس البلاشفة وثورتهم الشيوعية المشئومة سنة ١٣٣٦هـ/١٩١٧م، بل إن روسيا تدخلت في تركستان منذ أواسط القرن السادس عشر الميلادي، وأكملوا سيطرتهم على تلك البلاد سنة ١٨٨٠م، وتركوا تركستان الشرقية للصين ترزح تحت حكمهم وتعاني المصائب والشدائد إلى يومنا هذا، أسأل الله أن يفرج عنها كما فرج عن أختها الغربية.

سافرت إلى قزقستان في رحلة بالطائرة مباشرة من دبي استغرقت قرابة أربع ساعات، وقد أدركت وأنا في الطائرة كم ابتعد أولئك الناس عن دينهم،

فالطائرة قزقية - وليس كازاخية كما ينطقها الكثير- وزرت طاقمها المكون من أربعة ملاحين مسلمين، فحاولت أن أتفاهم معهم بصعوبة حول الإسلام ومكة والمدينة والرسول ﷺ، لكني أدركت بعد حين أن القوم أبعد ما يكونون عن كل ذلك، المهم أني عندما هبطت بي الطائرة في العاصمة ألمآتا - أي بلد التفاح، لكثرته عندهم - ونزلت إلى صالة المطار تأكد لدي المفهوم السابق أن الروس لم يتركوا في هذا البلد إلا الخراب العقدي والدمار الأخلاقي، فالنساء القزقيات لا يكدن يختلفن عن نساء الروس في لباس أو عادة.

والمحزن حقًّا أن بعض الإخوة من القزق أخبرني أنه لا تكاد توجد بنت عذراء في هذا البلد، وذلك لما أحدثه الروس من بلاء على الناس، والخمور في العاصمة وفي القرى منتشرة انتشارًا عجيبًا لافتًا للنظر، فهي تُشرب كالماء، ويقبل عليها الرجال والنساء، والكبار والصغار، وثمنها زهيد، فإذا اجتمع على القوم الخمر، وتهتك النساء، وقلة الدين، وضعف الإيمان، وتواتر الشهوات، وكثرة الشبهات، إذا اجتمع عليهم كل ذلك فلا غرابة إذن أن تشاهد البلاد وقد غرقت في مستنقع آسن من الفساد والتخلف والضعف.

والبلاد كانت مشهورة بأنها معقل الصناعات النووية في الاتحاد السوفيتي السابق، فلما خرجوا عنها إذا بالقوى الدولية تجتمع عليهم وتفاوضهم، حتى استطاعت أن تدمر القنابل النووية، وتترك البلاد ولا أهمية لها ولاخوف منها، هذا عدا عن المصانع الكثيرة التي كانت تحفل بها البلاد لكنها امتلأت بالعمال الروس فقط، أما القزق فليس لهم إلا الرعي والصناعات اليدوية، فلما رحل الروس تعطلت المصانع تمامًا وأصبحت مهجورة.

أرأيت كيف يفعل الاستخراب (الاستعمار) بالبلاد الإسلامية ويورث

أهلها الشقاء والعناء والتخلف والبعد عن الإسلام، فإذا علمت أن قزقستان أكبر دولة إسلامية من حيث المساحة طال عجبك واشتد همك.

وهناك خطر كبير يتهدد المسلمين ألا وهو التنصير الذي شرع القائمون عليه في العمل بقوة في هذه البلاد، وأغروا أهلها بشتى أنواع الإغراء، ولما كان القوم في خواء تام من الناحية الإيمانية وجهل كامل بالشريعة الإسلامية وضعف اقتصادي كبير، لما كانوا كذلك استجاب كثيرون لدعوات التنصير وتنصر مئات الآلاف من أهل البلاد الذين يصعب جدًّا أن نقول إنهم كانوا مسلمين، فأكثر مَن تنصَّر لايعرف حتى الشهادتين، وأنا لا أُكفِّر أحدًا إنما أنقل الواقع، ولأن المسلم الحق يستحيل تنصيره.

جهود الدعوة:

أما الصورة المشرقة فهي الجهود المبذولة لعودة الناس لدينهم من جديد، وهي ممثلة في مؤسسات إسلامية تعمل وتجند رجالاً دعاة أخيارًا تفرغوا لنشر الإسلام من جديد في هذه الديار التي يُفترض أن تكون جزءًا مهمًّا من العالم الإسلامي، لكن الواقع المرير يرفض ذلك، والمؤسسات العاملة مثل «طيبة الخيرية العالمية» وجهودها مبذولة متميزة، وخيرها ظاهر، وعملها مبارك إن شاء الله تعالى، ومؤسسة أخرى وهي «الندوة العالمية للشباب الإسلامي»، وتبذل جهودًا جيدة في هذا المجال، ومؤسسة «الوقف الإسلامي» وهي من المؤسسات التي دخلت مبكرًا نسبيًّا إلى بلاد القزق، لكن لم يُتح لي أن أقابل مسئوليها إلا دقائق معدودة في بيت الأخ الكريم الملحق الثقافي بالسفارة السعودية الأستاذ محمد الغيلان، فلم أستطع أن أطلع على نشاطهم وما يصنعون، لكني أحسبه مُنصبًّا في وعاء الدعوة الإسلامية.

ولنعد مرة أخرى إلى سبب دعوة مؤسسة «طيبة الخيرية العالمية» لي ألا وهو إقامة دورة شرعية متنوعة مكثفة لمجموعة من الطلاب الجيدين الذين يفهمون العربية وهم خلاصة مخيم سبق الدورة، وشارك فيه عدد من طلاب الجامعات، وكانت الدورة في علوم متنوعة مثل العقيدة والتفسير والحديث ومصطلحه ومبادئ الفقه والتاريخ وإعجاز القرآن وغير ذلك.

وهذه الدورة أرجو أن يكون الله قد نفع بها في تثبيت بعض المفاهيم الشرعية والتصورات الإيمانية، ولمست بنفسي مدى تعطش الطلبة لفهم الإسلام، ورغبتهم الجامحة في إنقاذ أهلهم، ودعوتهم إلى الالتزام بالإسلام، لذلك كان لابد من إلقاء بعض المحاضرات التي بينت لهم فيها شمول الإسلام وعالميته، وأهمية الدعوة إلى الله تعالى على بصيرة وهُدى، ويمكن لهؤلاء الطلبة وأمثالهم إن أُحسن تعهدهم أن يكونوا طلائع العمل الإسلامي الصالح الذي يبني الأنفس والعقول والأبدان، ويرتقي بالبلاد إلى سدة الفلاح والرشاد، وكنت دائمًا أُذكرهم بأجدادهم العظماء الذين ملأوا الدنيا علمًا وعملاً كأئمة الحديث والفقه واللغة والطب والفلك وغير ذلك من العلوم.

والأمر المحزن أني عندما سألتهم عن تاريخهم والكتب التي تحدثت عن حال أبطالهم وعلمائهم وكبارهم أجابوني بأن الروس لم يبقوا شيئًا، وأنهم دمروا كل تراث هذه الجمهورية وغيرها من الجمهوريات التي تأتي أوزبكستان في مقدمتها، لأن فيها «ترمذ» و«بخارى» و«طشقند» و«سمرقند»، أي أن فيها جزءًا كبيرًا من تاريخ الإسلام وهذا يبين عِظم الجريمة التي ارتكبها الروس حين ضيعوا عمدًا تاريخ الجمهوريات الإسلامية ليتمكنوا من محو معالم الإسلام والثقافة الإسلامية والعلوم الإسلامية محوًا تامًّا وقد نجحوا في ذلك

نجاحًا بعيدًا.

وأنا أدعو كل التجار وأهل الخير والثراء أن يشاركوا المؤسسات الإسلامية في إقامة مشروعها الكبير الضخم المتمثل في طباعة الكتب الإسلامية باللغات المحلية المختلفة، حتى يصل الخير إلى كل المسلمين، خاصة أن كثيرًا من أهل البلاد لا يكادون يعرفون شيئًا عن الإسلام، ويحتاجون إلى طباعة ملايين الكتب بلغاتهم حتى يصح إيمانهم ويعظم تصورهم عن الإسلام وشرعه المطهر، وأدعوهم كذلك أن يتقدموا لكفالة الدعاة الذين يتخرجون في المعاهد الإسلامية، وتفريغهم تمامًا للدعوة والإرشاد، وكفالتهم لا تكاد تُكلف شيئًا، وهذا أقل ما يجب علينا تجاه إخواننا هؤلاء حتى يقوموا بواجبهم.

مناظرة الوفد الحكومي الروسي:

وكانت الدورة قد عُقدت في نُزل محاط بحدائق غناء جميلة، وكان معنا في النزل أشخاص كثيرون من الرجال والنساء ظننتهم من الوفود السياحية، ثم تبين لي أنهم وفد روسي حكومي مكون من شباب مختارين من كل الجمهوريات المستقلة عن الاتحاد السوفيتي السابق ويرافقهم شباب روس، وكانت إحدى النساء المسئولات عن الوفد امرأة مسلمة، فطلبتْ هذه المرأة من مسئول الدورة الشرعية أن يأتي الشباب إلى أماكن إقامة الوفد الروسي ليختلطوا بهم وليراقصوا فتياتهم!!

انظروا إلى هذا الطلب الغريب الذي يدل على جهل كامل بالدين لدى هذه المرأة المسلمة!! ثم إنهم – وأكثرهم مسلمون – تعجبوا منا وقالوا: أنتم تُكثرون من الصلاة!! وتعزلون الشباب عنا!! وبعد ذلك طلبوا أن يجتمعوا بنا

لأن لديهم أسئلة حول الإسلام، فرحبنا بذلك؛ رجاء هدايتهم أو تخفيف حدة وكثرة الشبهات في أذهانهم، فجئنا بشبابنا في الدورة الشرعية وأجلسناهم في ناحية منفردة عن الوفد الروسي، خشية عليهم من الافتتان بنسائهم فعجبوا وقالوا: هذه أصولية، كيف تفعلون هذا؟ ثم تساءلوا: لماذا ليس معكم فتيات، ولماذا تقتصرون على الذكور؟!

ثم طلبوا مني مقدمة عن حال المرأة في الإسلام فتكلمت بما فتح الله-تعالى-لمدة عشرين دقيقة تقريبًا، ثم انهالت الأسئلة الكثيرة عليَّ لمدة ساعتين وكان هناك مترجمان من إخواننا: مترجم إلى اللغة القزقية وآخر للروسية، وتنوعت الأسئلة من المسلمات والكافرات وقليل من الرجال المسلمين والكافرين، فهذه امرأة تسأل عن حكم تنظيم النسل وتحديده، وثانية تسأل عن سبب الحجاب، وروسية تسأل عن حد الزنا للمحصن وغيره، ورابعة -وكانت روسية-سألت عن المرأة العقيم ماذا يصنع معها زوجها، ثم قالت بأنها لا تصدق ما قدمته في بداية الحديث عن أوضاع المرأة في الغرب وسوء حالها، وأن المرأة المسلمة أحسن منها بكثير، فقلت لها: إني لا أستطيع أن أقول سوى الحقيقة وأنا مسئول عما قلته فصدقتني وشكرتني وقالت: إنها لم تكن تعرف أن الإسلام عظيم هكذا.

ثم سألني رئيس الوفد الروسي عن الشيشان والأفغان، وذكر في ثنايا كلامه أنهم إرهابيون يزرعون المخدرات، ويريد أن يعرف موقفي منهم، فقلت له: نعم إن بعض الأفغان يزرعون المخدرات، لكن هل هذه هي قضية النزاع؟ إن قضية النزاع بيننا وبينكم هي أنكم غزوتم بغير وجه حق بلدين مسلمَين آمنَين وروعتم الأهالي وقتلتم مئات الآلاف، أليس ذلك إرهابًا؟ فنكس

الروس من الوفد رؤوسهم خجلاً!

ثم سألني شاب طاجيكي عن الموقف من العمليات الاستشهادية في فلسطين، فبينت له أهميتها وضرورتها وهدفها فصدقني، وصفق الوفد الروسي وإخواننا أيضًا، ثم سألتني إحدى النساء عن حكم الإسلام في مهربي المخدرات ومستعمليها، فبينت أن العقوبة للأول واجبة أما الثاني فهناك مستشفيات تعنى به، وهكذا عشرات من الأسئلة التي انتهت بتصفيق حار من الوفد الروسي وشُكر.

وتركوني حيران لا أدري كيف أعمل لأُوصل لهم رسالة الإسلام، روسًا كانوا أو مسلمين، وتألمت لانشغال الدعاة وطلبة العلم عن أمثال هؤلاء بخلافات لا تقدم ولا تؤخر، وينفقون فيها أوقاتهم وجهودهم التي لو صرفوها لأمثال هؤلاء لأغنت كثيرًا، ولقضت على كثير من الشبهات، ولعجلت بعودة أهل الجمهوريات إلى دينهم من جديد.

حفل تخرج:

ودعاني المسئولون عن معهد طيبة في أكبر مدن قزقستان لحضور حفل تخريج طلاب «دبلوم علوم اللغة العربية والحضارة القزقية»، وسعدت بحضور اللقاء الذي أثلج صدري، وعلمت أن الله تعالى غالبٌ على أمره، وأنه ينجد المسلمين كلَ حين برجال عاملين ودعاة مؤثرين فاعلين، يقيمون المؤسسات ويوظفون الدعاة وينشرون رسالة الإسلام في بلاد أُريدَ لها أنت كون ملحدة منقطعة الصلة بالله تعالى، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وقذف في وجوههم بأولئك الدعاة العاملين، نسأل الله تعالى أن يوفقهم أجمعين.

وقد ابتدأ الحفل بآيات من كتاب الله تعالى، ثم كلمة لمدير المعهد بيَّن فيها جهود العاملين من المدرسين وفائدة ما حصل عليه الطلاب من العلم والشهادة لهم بما علموه.

ثم قام الدكتور العامل نحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحدًا د.صالح بن عمر بادحدح بتوزيع الشهادات على الخريجين، وهذا الرجل هو مدير عام مؤسسة طيبة الخيرية العالمية، وله جهود في أنحاء العالم مشكورة مأجورة، إن شاء الله تعالى، ثم ألقى كلمة حث فيها الطلاب على العمل بعلمهم، وأنهم إن لم يصنعوا فقد ضاعوا وضيعوا، ولم يقوموا بالواجب الملقى على كواهلهم.

ثم شرفوني بكلمة بينت فيها ما يمكن أن يعمله الطلاب المتخرجون في مجتمعهم، وكيف يستطيعون أن يكونوا رُوادًا ينشرون الخير والصلاح، وكان في الحفل بعض أهالي الطلاب، فلا تسأل عن فرحتهم بأولادهم وسرورهم البالغ بما حصلوا عليه من علم، وأتساءل في هذا المقام: أليس في أغنياء المسلمين رجل يقوم ببناء سلسلة معاهد على هذه الشاكلة في كل الجمهوريات الإسلامية؟

ألا يمكن عمل سلسلة من المعاهد الكثيرة المنتشرة في المدن والبلدات لتُعلم المسلمين وتُرجعهم إلى دينهم؟ إن اليهود يعملون بقوة في الجمهوريات، والنصارى يعملون دائبين وينشئون المنشآت الكثيرة فأين أغنياؤنا ورجالنا؟!

ثم توالت كلمة الطلاب وكلمة الأهالي التي ألقتها امرأة عجوز طاعنة في السن شكرت فيها رجال المعهد على ما قاموا به، ثم قام الطلاب بتمثيل مشهد عن كيفية عمل الشيطان في تفريق المسلمين، ثم أنشد بعض الطلاب أنشودتين

مؤثرتين، وألقى أحد شعرائهم المشهورين قصيدة، ثم خُتم الحفل بدعوة كريمة من الدكتور صالح بادحدح للطلاب جميعًا مع المدرسين ومسئولي المعهد لحفل غداء.

وألقيت كلمة في حفل الغداء دعوت فيها طلاب المعهد إلى الزواج بفتياته الصالحات المحجبات، وألا يُتركن لضغط الأهل والمجتمع، وطلبت من الطالبات المتخرجات القيام بمهمتهن الشاقة الصعبة في دعوة بنات جنسهن إلى الإسلام والحجاب وتعليم اللغة العربية ونصحتهن ببعض النصائح الأخرى.

وبختام هذا الحفل اختتمت رحلتي إلى قزاقستان، وكلي أمل في أن يعود الإسلام – إن شاء الله تعالى – قريبًا إلى هذه الديار، إذ هم يعيشون البدايات الأولى المبكرة للصحوة كما عشناها نحن في البلاد العربية في أوائل التسعينيات الهجرية / السبعينيات الميلادية، فهل يتحقق هذا الأمل ويعود المسلمون هناك إلى دينهم من جديد؟! أرجو هذا وآمله وإن كان دونه عقبات كثيرة، لكن توفيق الله – تعالى – مع جهد العاملين سيكون له أكبر الأثر في تحقيق هذا الأمل، والله ولي ذلك جل جلاله.

***

١- أيـــام فـــي قرغيزيـــا ١/٣

قرغيزيا جمهورية إسلامية مجاورة لقزقستان، لكنها أصغر منها بكثير، إذ إن مساحة قزقستان ٢,٨ مليون كيلو متر مربع تقريبًا وهي أكبر دولة إسلامية في مساحتها، وتبلغ مساحة قيرغيريا ١٩٧ ألف كيلو متر مربع تقريبًا، لكن نسبة المسلمين فيها قرابة ٧٠٪ بينما نسبة المسلمين في قزقستان قرابة ٥٥ ٪.

وصلت إلى هذه الدولة آملاً أن أجد أوضاعًا أفضل من قزقستان، فخاب أملي، وعرفت أن الجمهورية القرغيزية تأثرت بالروس تأثرًا هائلاً، كما تأثرت بهم باقي الجمهوريات، فقد مررت بوسط العاصمة «بشكيك» لأجد تمثالاً لرقية وهي أول امرأة تخلع الحجاب هناك، فصوروها وبيدها الحجاب ترمي به، وعرفت أن النصارى يعملون باجتهاد كبير في تنصير المسلمين، وأن بعض القرى قد زادت نسبة النصارى فيها عن نسبة المسلمين، وأنه في بلدة واحدة بلغ عدد الكنائس ١٣ كنيسة مقابل مسجدين!! وأن النصارى يجذبون الشباب المسلمين الذين تُعد علاقتهم بالدين أوهى من خيط العنكبوت، يجذبونهم بوسائل كثيرة، وأن بعض الفتيات القرغيزيات يتزوجن بأوروبيين وصينيين ويابانيين إلخ.

أما الخمور فهي منتشرة انتشارًا كبيرًا كحالها في قزقستان.

وحدثني أحد أفاضل أهلها وهو الدكتور أوزبيك الطبيب البارع المتخصص في تقويم الأسنان وتجميلها، وله براءات اختراع وأبحاث منشورة

في المجلات العالمية حدثني أنه عندما التزم بالإسلام قبل ثلاث عشرة سنة، وكان عمره اثنتين وثلاثين سنة، كان الناس يقولون عنه إنه مجنون! وقصته عجيبة حيث كان في سياحة لبلغاريا فقابل أتراكًا فسلموا عليه، وتأثر بهم لما سألوه: هل أنت مسلم؟ وعاد إلى بلاده ليقابل الملاّ الذي أخبره بأنه يجب عليه أن يصلي منذ كان عمره اثنتي عشرة سنة، فصاح د.أوزبيك: إذن أنا متأخر عشرين سنة، وأصر على تعلم الصلاة فحافظ عليها من يومه ذاك، فصار أهل قريته يتهمونه بالجنون ويذهبون إلى أمه العجوز ليخبروها أن ابنها جُن، وكانت أمه تبكي طويلاً، وهو يقول لها: يا أمي، أنا طبيب مشهور، فكيف أكون مجنونًا؟ فتهدأ قليلاً لتعاود البكاء من جديد!!

وقسا عليه أبوه عندما بدأ يدعو للإسلام، وأخذ أصهاره زوجته منه واتهموه بالجنون، لكنه صبر على كل ذلك، وصار يدعو للإسلام في التلفزيون القرغيزي مرتين في الأسبوع، وله نشاطات مشكورة، وهو حريص على التعدد لإنقاذ نساء قومه، فقام عليه الناس قومة عظيمة لكنه أسكتهم ببيان أهمية التعدد وحكمة الإسلام في تشريعه، وهو اليوم متفرغ للدعوة وترك التدريس في الجامعة، وله تأثير جيد في المجتمع، والناس يحترمونه ويحبونه، على قلة اكتراثهم بالدين.

أما جنوب البلاد الملاصق لطاجيكستان وأوزبكستان، فهو أحسن حالاً من شماله الملاصق لقزقستان، فأهله أقرب للإسلام.

وفي البلاد طوائف متعددة وأعراق مختلفة، منهم الإيجور-وهم من أهل تركستان الشرقية التي تحتلها الصين اليوم عجل الله فرجها-ومنهم الدونجان، فمن هؤلاء وما قصتهم؟

يومان مع الدونجان:

الدونجان ينحدرون من وسط الصين، وعددهم هناك قرابة عشرة ملايين، أما عددهم في قرغيزيا فقرابة مائة ألف فقط، ويقال إن أمهم صينية وأباهم عربي، وهم يعملون بالزراعة ورعي الماشية، ويعتمدون كثيرًا على أنفسهم في هذا الأمر ويباشرونه بأيديهم، ويحثون أولادهم على العمل أيضًا، ولهم لغة خاصة بهم.

أقام الدونجان مخيمًا لشبابهم الذين يدرسون في جامعات قرغيزيا والسعودية ومصر وسورية، ودعوني لإلقاء محاضرات في مخيمهم الذي أقاموه لتعميق بعض المفاهيم الإيمانية والدعوية، فأجبتهم مسرورًا، وألقيت فيهم ثلاث محاضرات وموعظة، أما المحاضرات فكانت عن: الأخوة الإسلامية، ومهمة طالب الجامعة، والتذكير ببعض المفاهيم الإسلامية، وأما الموعظة فكانت عن فضل الذكر، وكان نصفهم يتحدث بالعربية والنصف الآخر لا يستطيعها، فكان الحديث عن طريق مترجم فكان ذلك شاقًّا علي، ويقطع تسلسل المعاني لدي، لكن لا بد مما ليس منه بد، ولاحظت أن الشباب يكادون يجهلون حال العالم الإسلامي وعلماءه ورموزه؛ خاصة من كان فيهم يدرس في قرغيزيا، بل لاحظت أن الجهل عام فيمن يدرس بقرغيزيا وخارجها في قضايا إسلامية مهمة وأخبار تاريخية لا تكاد تخفى، لكني عذرتهم، حيث إن القوم رزحوا مئات السنين تحت احتلال صيني روسي، فماذا يتوقع منهم بعد ذلك؟!

وعلمت أن الدونجان حريصون على تعاليم الإسلام من صلاة وصيام وبعض نسائهم محجبات، وهم على العكس من القرغيزيين الذين قد ابتعد أكثرهم عن الإسلام.

والقوم بحاجة إلى التفاتة جادة من قبل علماء المسلمين ودعاتهم ومفكريهم وأغنيائهم، فهم على استعداد تام لخدمة الإسلام لو فقهوه، وفيهم من صفات الشدة والقوة والبعد عن الترف ما يؤهلهم لعمل متميز، فمخيمهم على النقيض من كل المخيمات التي حضرتها؛ فهو بعيد عن وسائل الرفاهية تمامًا، حتى إنه لا يوجد فيه بيت للخلاء إلا صندوقان خارج المخيم يقضي فيهما المرء حاجته، فمن احتاج إلى قضاء حاجته فإنه يسير في ظلمة الليل وبرده خارج المخيم ليصل إلى بُغيته، وطعامهم نوع واحد فقط، ويأكلون اللحوم ٣ أو ٤ مرات يوميًّا، وأجسادهم صحيحة وفطرتهم إلى حد كبير سليمة، واعتزازهم بالإسلام كبير، وهم من الطوائف العصية على المنصرين وأشباههم، فالله الله فيهم، ولندركهم قبل فوات الأوان.

قصة الشيخ يوسف الدونجاني

لكن ما السبب في حسن تمسكهم بالإسلام؟ إن الفضل في ذلك - يعود بعد فضل الله- لعالم دونجاني صيني اسمه يوسف، وقصته عجيبة حكاها لي تلميذه الشيخ عبد الكريم الدونجاني، حيث تناقشت وإياه يومًا عن مشكلة الدونجان الصينيين وكيف يعيشون تحت الحكم الشيوعي الصيني، فذكر لي أن حالهم اليوم أفضل من حالهم أيام الشيوعيين في العهد السابق، وقص علي ما كان يفعله الهالك ماوتسي تونج رئيس الصين السابق بهم، وأنه أخذ علماءهم ومشايخهم وقتلهم قتلة شنيعة، حيث كان يعصر رأس الواحد منهم بين خشبتين حتى تتفجر دماؤه، ثم يأمر أهاليهم بدفنهم، وقد نجا من تلك المذبحة المروعة الشيخ يوسف، ففر إلى قرغيزيا التي كانت ترزح آنذاك تحت الحكم الروسي الشيوعي، وذلك سنة ١٣٨١هـ/١٩٦١م فكان كالمستجير من

الرمضاء بالنار لكنه تخفى عند الدونجان في قرغيزيا، وبدأ يعلم التلاميذ الإسلام والقرآن، وقد كانوا آنذاك يشبهون القرغيز في البعد عن الإسلام وترك النساء للحجاب، فصار يعلم التلاميذ شيئًا فشيئًا تعاليم الإسلام وهدي القرآن، لكنه لم يخبرهم بكل الشرائع المفروضة، تدرجًا منه في أخذهم بالإسلام وحكمة في دعوتهم.

ثم وقع بصر محدثي الشيخ عبدالكريم في القرآن على الأمر بحجاب النساء، فسأل الشيخ عنه فأخبره، وأخبر باقي التلاميذ أن الحجاب واجب، وكان ذلك سنة١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، فأخذ الشيخ عبدالكريم في دعوة أهله للحجاب، فابتدأ بأمه التي رفضت ذلك، وصار يلح عليها ويبكي وهي ترفض، ولما كثر إلحاحه واشتد بكاؤه قبلت أن تلبس الحجاب، فلما لبسته لم تخلعه بعد ذلك، ثم تحول إلى زوجته فأمرها بالحجاب فلبسته، ثم أمر أخواته الست بلبس الحجاب فلبسنه، فكانت أول عائلة في دونجان قرغيزيا تلبس نساؤها الحجاب.

ثم صار يدعو الناس إلى أن تلبس نساؤهم الحجاب، ودعا بذلك على المنبر، فوصل الخبر للشيخ يوسف وكان في المستشفى فطلبه فحضر إليه وعانقه وبكى فرحًا بما صنع تلميذه، وأنه فعل ما لم يستطعه هو، فدعا له، وذكر له أنه مستعد للقاء الله تعالى في أي وقت بعد أن أدى واجبه، وتوفي الشيخ يوسف سنة ١٤١٢هـ/١٩٩٢م بعد أن كان له الفضل الأكبر، بعد الله تعالى، في نشر الإسلام في دونجان قرغيزيا.

فسبحان الله.. شيخ واحد ينجو من المذبحة في الصين يحول الله تعالى به مسار فئة كاملة.

٢- أيــــام فــــي قرغيزيا ٢/٣

أقامت الندوة العالمية للشباب الإسلامي المخيم الأول لطلبة الجامعات القرغيزية، وكان قد سبقه المخيم الأول لطلاب الثانويات، وقد كنت حريصًا على حضوره لكني لم أدركه.

وأكرمتني الندوة وأحسنت ظنها بي إذ دعتني لإلقاء بعض المحاضرات في مخيمها، وكانت قد أقامته في منطقة «إيسيكول» السياحية ذات المناظر الرائعة والبحيرة الضخمة الشهيرة، والمخيم أقيم في مبان بناها الاتحاد السوفيتي المنحل ليكون مكانًا يلتقي فيه الطلاب ويجتمعون فيه في رحلات كشفية مدرسية وجامعية، فسررت لما علمت أنه المخيم الأول على هذه الشاكلة، ودعوت بظهر الغيب للقائمين عليه، وما ذلك على الندوة بغريب؛ فهي قد عملت طويلاً منذ ثلاثين سنة لخدمة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها فجزاها الله تعالى خيرًا، وأحسب أن الله تعالى وفقهم في كثير مما قاموا به وعملوه.

تأثر الطلاب:

وألفيت الطلبة في حاجة ماسة لمعرفة قضية فلسطين وأنهم في جهل تام وعماية عن كثير من تفصيلاتها، فألقيت عليهم - موافقةً لطلبهم - موضوعًا عن فلسطين وظلم اليهود والغرب الذي حل بها، وتأثر كثير من الطلاب بالأحداث وسردها والوقائع وذكرها، ثم حاضرتهم في موضوع «شمولية

الإسلام لكل مناحي الحياة»، وحاضرتهم أيضًا في «مهمة الطالب الجامعي في الحياة» وكيف يعد نفسه لمستقبل أفضل، وذكرت لهم في موعظة بعد صلاة الفجر فضل الذكر وأهميته في حياة المسلمين، وغير ذلك من المحاضرات التي تبعتها أسئلة أظهرت كيف أنا لقوم بعيدون كل البعد عن فهم ما يجري في العالم الإسلامي، وأنهم يفتقرون في مجموعهم إلى الثقافة الإسلامية الأولية التي ينبغي ألا تغيب عن أمثالهم، لكن لا عجب فالقوم قد غرقوا في بحر الشيوعية أكثر من سبعين سنة، لكن سرني ما رأيته من حرصهم على معرفة دينهم واهتمامهم بإسلامهم، و٣٠٪ منهم تقريبًا كانوا يصلون للمرة الأولى حيث لم يعرفوا الصلاة قبل ذلك.

تقصير العلماء:

ولما التفوا حولي يودعونني بلهفة ظاهرة علمت كم نحن مقصرون في حقهم، وأن العالم العربي وعلماءه وشيوخه ومفكريه ومثقفيه ودعاته - في الجملة- في غفلة عن أهل الجمهوريات الذين هم متحمسون لتلقف الإسلام، والخشية كل الخشية أن يتلقفهم غيرنا من دعاة التنصير إنهم يئسوا من نجدة العالم العربي خاصة والإسلامي عامة.

سلوك إسلامي:

وقد لفت انتباهي حقًا أن الندوة – جزاها الله تعالى خيرًا- قد استطاعت أن تلزمهم بسلوك إسلامي في الظاهر هم بأمس الحاجة إليه وإلى معرفته، فلباسهم مستورة به عوراتهم في جملتهم وهو من توزيع الندوة، فيسبحون ويلعبون وهم مستورو العورة، والصلاة جماعة في أوقاتها حتى الفجر، وإلزامهم بأذكار الصباح والمساء، والدعاء، والشعار الإسلامي، والأناشيد

الإسلامية، والذكر عند الطعام، وغير ذلك من أنواع السلوك الإسلامي الذي رافق تعليمهم لأوليات الدين ومبادئ الشرع المطهر، وأنا متأكد بحسب استقراء أحوالهم أنها المرة الأولى التي يلتزمون فيها بها التزموا به، وهذا من فضل الله تعالى، فهذه نواة لعمل دعوي جيد يأخذ بيد هذه البلاد وأهلها إلى كل خير ،إن شاء الله تعالى، ولا ينبغي أن ننسى أنه المخيم الأول، وأن وراء ذلك أعمالاً تتلوها أعمال وجهودًا تعقبها جهود حتى يمنّ الله تعالى على هذا البلد وأهله بالرجوع إلى دينهم وإسلامهم من جديد، وما ذلك على الله بعزيز.

مخيم الأدباء والمثقفين:

بعد فراغ المخيم الأول لطلاب الجامعات، دعيت إلى مخيم الأدباء والمثقفين، وكان اللقاء بهم قصيرًا لمدة يوم واحد فقط، ولم أتمكن من البقاء أكثر من ذلك بسبب الارتباط بمواعيد أخرى، لكني شعرت بالابتهاج بسبب ما رأيته؛ إذ اجتمع عدد من (البروفيسورات) مع صحفيين وأدباء وأطباء وغيرهم يريدون معرفة دينهم وكيفية العمل من أجله، وهذا لعمر الحق من أكبر المبشرات في هذه المنطقة التي نكبت طويلاً بحكم الروس القياصرة ثم البلاشفة الملحدين.

وابتدأت لقائي معهم بمحاضرة عن «فلسطين» استمرت مع الأسئلة والترجمة قرابة ثلاث ساعات بينها فترة الراحة، وكم عجبت عندما علمت أنهم لا يكادون يعرفون شيئًا عن فلسطين وتاريخ الصراع الإسلامي اليهودي فيها، مع أن غالبية المستمعين كانوا من الذين أمضوا زمانًا طويلاً متصلين بأسباب الثقافة، لكن زال عجبي عندما علمت أن اليهود مسيطرون على كثير من وسائل الإعلام في الجمهوريات بطريقة أو بأخرى، وأن الشعب لا يكاد يعرف

شيئًا عن مكائدهم ولا وسائلهم الخبيثة لضرب الإسلام والمسلمين.

تعطش للمعرفة:

ثم ألقيت فيهم محاضرة عن «شمول الإسلام لجميع مناحي الحياة»، وتشعب الحديث عن النصرانية وفشلها في إدارة شئون حياة النصارى بسبب عجزها، والانفصام التاريخي الذي حصل عندهم بين العلم والدين، وكانت أسئلتهم مهمة ومناسبة للمقام وتدل على تعطش للعلم والمعرفة العامة والمعرفة الإسلامية على وجه الخصوص، وقد ناسبهم جدًّا أن يعرفوا أن الإسلام يثيب على العلم والتعلم وعلى كل الأفعال الدنيوية من زواج وتربية وعمل إن توافر الشرطان: العمل المباح الصواب، والإخلاص، ففرحوا.

أسئلة موضوعية:

وسألوني: هل تعليم الرياضيات يكسب الحسنات؟ وهل معالجة المريض الميؤوس من شفائه تكسب الحسنات؟ ثم تبين لي أثناء المناقشة أن بعضهم يكتب القصائد الإسلامية ويسأل: هل يمكن نشرها؟ وبعضهم يكتب الكتب الأدبية لكنها لم تُنشر، فدللتهم على رابطة الأدب الإسلامي العالمية فعجبوا لأنهم لم يسمعوا بها من قبل، وبعض الأساتذة (البروفيسورات) عندهم أبحاث رياضية متميزة على مستوى العالم فدللتهم على جائزة الملك فيصل العالمية في العلوم، فتبين لي أنهم لم يسمعوا بها من قبل، وهذا من تقصيرنا في نشر أخبار مؤسساتنا في دول الجمهوريات الإسلامية، على أن شعب الجمهوريات شعب قارئ مطلع.

الحاجة إلى المال:

ولقد أحزنني حقًّا أن أسمع منهم أن المال عائق عن كثير من المشروعات

النافعة، فهذه مجلة فصلية تعطلت بسبب المال، وهذا مشروع حج يجتمع فيه بعض الكبراء والمثقفون ويعود عليهم بكل خير فلا يمكن إمضاؤه بسبب المال، فأين أنتم أيها التجار المسلمون والأغنياء المؤمنون؟ هل تعرفون أن راتب المثقفين وكبار الموظفين لا يكاد يتجاوز عشرين دولارًا في الشهر إلا لفئة قليلة، وأن قليلاً من المال تساعدونهم به يُعد عندهم كثيرًا جدًّا ،وأن الأخذ بيد هؤلاء ومساعدتهم يسهل كثيرًا نشر الدعوة الإسلامية في ربوع تلك الجمهوريات التي كانت في زمن ماض قد ساد أبناؤها وتميزوا في العلوم الشرعية واللغوية والعلمية الطبيعية؟!

والجمهوريتان قزقستان وقرغيزيا هما الأقرب لجمهور المسلمين لانفتاحهما النسبي على العالم، أما باقي الجمهوريات: تركمانستان، وطاجكستان فهي منعزلة قليلاً، وأما أوزبكستان فهي الجمهورية المغلقة في وجه العرب خاصة للأسف الشديد فهم غير مرحب بهم هنالك، هذا على أن فيها معظم الآثار الإسلامية: بخارى وطشقند وسمرقند ومرغلان ووادي فرغانة إلى آخر المدن الإسلامية التي سمعنا بها في تاريخنا، وبخارى وحدها فيها قرابة تسعمائة معلم إسلامي يمكن زيارته[1]، وأسأل الله تعالى أن يوفق أولي الأمر في سائر الجمهوريات الإسلامية آنفة الذكر إلى الانفتاح على العالم الإسلامي والعربي .

أما جمهوريتا قزقستان وقرغيزيا فإني أدعو كل المسلمين الراغبين في السياحة للخارج لزيارة تلك الجمهوريتين، وسبب ذلك هو التالي:

هاتان الجمهوريتان مثل سائر الجمهوريات عزلتا طويلاً عن العالم

---

(١) ستأتي ست حلقات في شأن أوزبكستان وزيارتي لها ، إن شاء الله تعالى.

الإسلامي، فلم تعد أجيال المسلمين فيهما يعرفون شيئًا عن الإسلام والمسلمين إلا قليلاً، فمعلوماتهم الإسلامية قليلة جدًّا، وتطبيقهم لأركان الإسلام نادر أو معدوم، حتى إن القوم انتشر فيهم التنصير انتشارًا خطيرًا واستُغل جهلهم بالإسلام استغلالاً معيبًا.

فزيارة المسلمين بأعداد كبيرة لهاتين المنطقتين يساعد في تضييق الهوة الشاسعة بينهم - أي أهل الجمهوريتين- وبين الإسلام، ويرون إخوانهم المسلمين ويتصلون بهم، وستعمر المساجد الخالية هنالك، والأهم أن القوم هنالك سيشاهدون المسلمات المحجبات، وقد مكثت في المنطقة عشرة أيام فلم أر من النساء المحجبات إلا ما يُعدعلى أصابع اليدين.

وفي سفر المسلمين لتلك المناطق تعميق لمعنى الأخوة الإسلامية الذي هو قد نُسي تمامًا هنالك، وتأكيد لكثير من المظاهر الإيمانية، والمشاعر الإسلامية.

والمسلمون الذين سيسافرون للسياحة في هاتين الجمهوريتين سيساعدون في تقوية الاقتصاد الضعيف هنالك بما سيصرفون من أموالهم وينفقونه من صدقاتهم، والأسعار في الجمهوريتين رخيصة مقارنة بكثير من البلاد التي يقصدها المسلمون للسياحة، وهناك من المناظر الطبيعية الخلابة خاصة في قزقستان ما يفوق ما هو موجود في كثير من الدول التي تُقصد للسياحة.

وأدعو الراغبين في الاستثمار لزيارة تلك الجمهوريتين، فأسعار الأراضي رخيصة والمصانع قليلة، واليهود قد سبقونا إلى هنالك كعادتهم، فلا ينبغي أن نترك البلاد لهم يتحكمون في اقتصادها وينهبون ثرواتها ويستعبدون أهلها.

وأدعو الراغبين في الاستثمار في جنة الآخرة أن يسارعوا لبناء المساجد

وإقامة المؤسسات الإسلامية التعليمية والتربوية، فالمساجد هنالك قليلة أو نادرة، وصوت الأذان لا يكاد يُسمع، والقوم بحاجة ماسة لمؤسسات ثقافية وتربوية وعلمية تقوم على أساس الإسلام وتأخذ بأيديهم للهدى والرشاد، فكما أن الحكومتين قد سمحتا للنصارى بالعمل فقد سمحتا للمسلمين أيضًا، فهل من مشمر راغب في الآخرة؟

ختامًا أشكر كثيرًا القائمين على الندوة العالمية للشباب الإسلامي في قرغيزيا لإقامتهم هذا المخيم المهم، وأخاطب جميع القائمين على فروع الندوة العالمية في أنحاء العالم مشجعًا إياهم على إقامة مثل هذه المخيمات النافعة التي تجمع الأدباء والمفكرين والمثقفين، وهي حقًّا فكرة رائدة جميلة كان لها أثر كبير في الأوساط الثقافية في ذلك البلد المسلم المنسي.

❊❊❊❊

٣- أيـــام فـــي قرغيزيـــا ٣/٣

زيارة وفد من اتحاد علماء المسلمين للإصلاح بين الأوزبك والقرغيز

جددت العهد بقرغيزيا بعد انقطاع طويل قارب ثمان سنوات، فقد دُعيت لأكون في وفد اتحاد علماء المسلمين الذاهب للإصلاح بين القرغيز والأوزبك، في الفتنة التي جرت بينهما في جمادى الآخرة سنة ١٤٣١هـ/يونيو٢٠١٠م ورأس الوفد الدكتور علي القره داغي الأمين العام للاتحاد وهو المتحدث الرسمي للوفد في الاجتماعات الرسمية، وكان فيه الشيخ حمدي أرسلان من تركيا، والشيخ مصطفى عفيفي عميد كلية الدعوة في الأزهر من مصر، والشيخ مصطفى الصيرفي وهو سوري قطري، والشيخ محمد ياسر المسدي وهو سوري يعيش في السعودية وكاتب هذه السطور.

أما سبب الفتنة فهو مشكلة حصلت بين القرغيز والأوزبك الذين يقيمون في الحدود الجنوبية لجمهورية قرغيزيا المتاخمة لأوزبكستان، وهذه المشكلة عرفت فيما بعد أن الأوزبك ظُلموا بسببها واعتُدي على محلاتهم وتجارتهم وقتل عدد منهم كبير، ويبدو أن المشكلة كانت نزاعًا على المال والتمكين في مدينتي جلال آباد وأُوش، والله أعلم.

وإنني مقتنع - فيما رأيت وفيما سمعت- أن هذه الفتنة ابتدأها وخطط لها أيادٍ خارجية ثم اشتعلت وعظمت على يد الفريقين القرغيز والأوزبك على حدٍّ

سواء، والله أعلم.

شددنا الرحال إلى قرغيزيا من تركيا ليلاً فوصلنا قرغيزيا فجرًا، وكان في استقبال الوفد بعض شخصيات الدولة، ثم أُخذنا إلى نُزُل استرحنا فيه قليلاً، ثم أُخذ الوفد لمقابلة رئيسة الجمهورية ووزير الخارجية، وتخلفت لأمر خاص.

ثم فُرق المشايخ على بضعة مساجد للوعظ فكان من نصيبي مسجد سوق الإيغور، وهم التركستانيون الشرقيون الذين يعانون من الظلم والطغيان الصيني، وقد خافوا أن يتأثروا بالفتنة التي جرت لكن الله سلم وحماهم.

فتحدثت معهم حديثًا موجزًا عن سروري بلقياهم، وعن فضل أجدادهم في المشاركة في بناء الحضارة والثقافة الإسلامية، ولابد أن يتمموا عمل الأجداد وذلك إنما يكون بالالتزام بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ وتنشئة الأولاد على الإسلام، والنظر في قضايا المسلمين والدعاء لهم، ثم صافحنا الحاضرين وانطلقنا إلى المكان المعد للغذاء، الذي حضره بعض الشخصيات الرسمية، ثم بعد ذلك شُغل الوفد بالاجتماعات الرسمية إلى أن حضر العشاء، ثم أخلدنا إلى الراحة.

وفي الصباح خرجنا من الفندق نريد السفر إلى مدينة أوش، وهي التي عانت من الفتن قتلاً وحرقًا للبيوت والمحالّ، فركبنا الطائرة إليها، وقد كانت طائرة روسية قديمة عديمة الرفاهية، ذات محركين مِرْوحيين، قطعت المسافة في قرابة ساعة، واستقبلنا استقبالاً رسميًا، ثم أُخذنا إلى مطعم كبير حُشد فيه رؤساء قبائل وعشائر الأوزبك والقرغيز، فتحدث الدكتور علي القره داغي فيهم حديثًا إيمانيًا مؤثرًا ختمه بالطلب من الحاضرين جميعًا أن يقفوا ويعاهدوا

الله على الإسلام والطاعة والأخوة وتناسي الأحقاد، وختم المجلس بهذا، ثم أخذ الحاضرون في الأكل وانصرف الناس عقبه.

ثم تفرق العلماء في المساجد ليعظوا الناس ويخطبوهم - وكان اليوم جمعة- فكان من نصيبي أن ذهبت مع الشيخ عبدالشكور إلى قرية تغلي بالغضب، سكانها من القرغيز، على بُعد ساعة من أوش، والشيخ عبدالشكور هو مدير الجامعة الإسلامية وخطيب جامع عائشة في بشكيك، وهو رجل مفوه وخطيب مِصْقع، وكان المترجمَ للوفد أينما ذهب؛ واختار أن يكون مرافقي فجزاه الله خيرًا، فلما جئنا جامع القرية وجدناه ممتلئًا، فتحدثت مع القوم حديثًا مناسبًا للحدث، ثم تحدث الشيخ عبدالشكور، ثم أُذن للجمعة، وخطب الخطيب خطبتين بالعربية موجزتين اكتفى بهما بأركان الخطبة، وبعد الصلاة عانقنا الناس وصافحونا بحرارة، ثم أُخذنا للغداء، ولابد عند القوم من طعام عقب كل موعظة مهما تكرر ذلك في اليوم والليلة، فوضعوا رأس الخروف أمامي، وطلبوا مني أن أقطع من طرف أذنه قطعة وآكلها فإن هذا الصنيع إيذانًا ببدء تناول الطعام، فلم أجد بدًّا من الاستجابة فليس هذا مكان تنزه أو امتناع.

ثم ذهبنا إلى بلدة أوزجان فوجدنا بضع مئات تحت الأشجار على أَسِرّة عريضة وكان الشيخ مصطفى الصيرفي قد سبقنا بالخطبة والحديث، فتكلمت كلمة موجزة، ثم تكلم الشيخ عبدالشكور بفصاحته وبلاغته فشد الأنظار إليه، وبكى بعض الناس ونشج، وأنا وإن لم أفهم ما قال لكن نجاحه في جذب قلوب الناس لا يخطئه البصر ولا البصيرة، وليس أحسن تأثيرًا من الداعية المتكلم بلسان قومه، فقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ

قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾[إبراهيم:٤] وإنما جاؤوا بنا ونحن لا نعرف لسانهم لأن للعرب مكانة في قلوب القوم لا تدانيها مكانة، فمهما قالوا أطاعوهم واستجابوا لهم.

ومن عادة القوم أنهم إذا استضافوا أحدًا فأكل عندهم وضعوا باقي طعامهم الكثير في «أكياس» أعدوها وهيئوها فلا يخرج كل طاعم إلا ومعه من الطعام شيء، والقوم كرماء معروفون بذلك، يضعون للضيف ألوانًا من الطعام والفاكهة والنقل «المكسرات» والحلوى والفطائر «البسكوت» ثم يأتونه بالمرق والطعام الذي إن أرادوا أن يكرموا به الضيف إلى الغاية صنعوه من لحم خيل محنوذ، ولقد أكلت منه مرارًا في هذه الرحلة والرحلة السابقة إلى قرغيزيا قبل ٨ سنوات فوجدت لحمه لذيذًا قليل الدهن ويحدث في الجسد حرارة وقوة ونشاطًا.

- ولقد تذكرت في هذه الرحلة كيف كانت البلاد نهبًا للشيوعيين الملحدين يعيشون فيها فسادًا وإلحادًا ثم عادت ديار إسلام ولله الحمد المنة، وتذكرت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ﴾[الأنفال:٣٦] ، فقد انقشعت غمة الإلحاد، وعاد الناس إلى دينهم فرحين مستبشرين كأن لم يكن بهم ضر أو نزل بهم سوء، فسبحان الله العظيم.

ثم غادرنا أوزجان عائدين إلى أوش، وهناك عقدت لنا ندوة في القناة الفضائية، وكنا خمسة الشيخ علي القره داغي، والشيخ مصطفى الصيرفي،

والشيخ محمد ياسر المسدي، والشيخ حمدي أرسلان، وكاتب هذه السطور، ودارت الندوة تقريبًا على المعاني السالفة الذكر، ثم لما فرغنا منها يممنا شطر جلال آباد، وهي مدينة أصغر من أوش، وكلتا المدينتين قديمة وأوش ثاني مدينة في قرغيزيا بعد بشكيك وجلال آباد ثالثة المدن، وبتنا فيها ليلتنا تلك، وهي سمية جلال آباد المشهورة في أفغانستان.

وفي الصباح ذهبت إلى قرية للوعظ فوجدت فيها محافظ جلال آباد مع بعض أركان الحكومة فعجبت لوجودهم في تلك القرية النائية، فلما سألت مرافقي قال لي: إن اليوم هو السبت ولا عمل وظيفيًّا فيه فالمحافظ يستغل الأمر ليدور على القرى والمراكز ليهدئ من روع الناس، فبدأ المحافظ بالكلام، ثم تكلمت بكلام موجز يقارب ما قلته من قبل في غير هذا المكان، ثم تكلم المسئول عن الأمن ثم طُلب مني أن أقرأ القرآن لأختم المجلس، فقام أحد الجالسين - وكنا في المسجد- وتكلم بكلام قوي تُرجم لي مضمونه بأنه يطلب من الحكومة أن تشتري القمح منهم ولا تستورده من قزقستان وغيرها، وعجبت من جرأة مطالبته وقوة كلامه فعلمت أنه قد بقيت فيهم قوة وعزة وكرامة، ولا عجب فإن لصاحب الحق مقالاً.

ثم ذهبنا إلى أمكنة عديدة قلنا فيها قريبًا مما قلناه من قبل.

- وقد لفت نظري أن أكثر الاجتماعات كانت في الجوامع الضخمة والمساجد وهذا أمر حسن يعيد للمسجد وظيفته التي كانت له في الصدر الأول، ويُعَدّ اعترافًا من الدولة بأثر الدين في تهدئة الناس، وهذا مهم للوقوف في وجه العلمانية اللادينية القاسية التي ورثها الحكم من الاتحاد

السوفييتي الهالك.

- وفي اليوم الأخير للزيارة ذهبت إلى مسجد طاش بولاق وهو جامع ضخم فحاولت أن أطيب قلوبهم وأثلج صدورهم بكلام يدور حول الصبر والعفو، ثم كانت هناك جنازة فقدموني للصلاة عليها، وبعد ذلك جاءني رجل يشكو أن مكتبته وهي قريبة من المسجد قد حرقت، ويرجوني أن أراها، وهكذا كان، فقد ذهبت إلى بيته فوجدته بيتًا واسعًا ذا حديقة أنيقة لكنه كان محترقًا مدمرًا، وأراني الرجل صاحب البيت بقايا الكتب التي كان تنوف على ألف كتاب، وأخبرني أنها كانت مرجعًا لأهل المنطقة فحزنت لذلك، لكني فرحت لصبر الرجل ورباطة جأشه، وثبات قلبه، وابتسامته التي كانت تعلو وجهه، وترديده الحمد والصبر، فلله ما أعظم حال المؤمن.

ثم بعد ذلك شددنا الرحال إلى أوش حيث أولم لنا بعض شخصيات الدولة، ثم توجهنا إلى المطار عائدين إلى إسطنبول فالمملكة، ولله الحمد والمنة.

كلمة لابد منها:

إن الذي جرى على يد العلماء في تلك الرحلة له عدة دلالات منها:

١- أن العلماء - خاصة العرب منهم- ما زالت لهم مكانة عالية في ذلك المجتمع بل في أغلب المجتمعات الإسلامية، فقد رأيت من محبتهم للوفد وإقبالهم على أفراده أمرًا عجبًا، وهذا من الله تعالى وإلا فإن أكثر العلماء قد قصروا طويلاً وأتوا بما يزيل مكانتهم كلها أو أكثرها من القلوب والعقول، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

٢- كان استقبال الحكومة القيرغيزية للعلماء حسنًا حافلاً، وأيًا ما كانت الأسباب فهو أمر حسن؛ ولن تقوم للأمة قائمة إلا باجتماع العلماء مع الحكام على طاعة الله تعالى وتحقيق مراده، وإنزال العلماء منزلتهم التي أنزلهم إياه الله تعالى ورسوله ﷺ.

٣- إن ما قام به وفد العلماء هو خطوة أولى في الطريق الطويل؛ إذ إن الصدور والعقول ما زالتا بحاجة إلى عمل طويل وعلاج آخذ بعضه بحجز بعض، ولابد لحكومات العالم الإسلامي وهيئاته الإغاثية أن تتحمل القدر الأعظم من التعويضات والترميمات فلا يجوز بحال أن تسبقنا المنظمات النصرانية إلى تلك البلاد التي أنجبت أعظم العلماء في فنون العلوم على مدار تاريخ الإسلام الأول والوسيط.

وختامًا:

فإنه ظهر لي من هذه الزيارة أن الحكومة القرغيزية لا تملك تصورًا متكاملاً لحل المشكلة، ولا أظن أن ذلك بمقدورها، فالمشكلة أكبر من طاقة دولة منفردة، فلابد أن يتعاضد على حل هذه المشكلة مجموعة من الدول الإسلامية، ولابد ألا تُترك هذه الدولة المسلمة وحيدة في خضم هذه الأحداث، فأعداؤها المتربصون بها كثر، وهي دولة محدودة الموارد والإمكانات فالله الله في المسلمين، ولنسارع إلى إغاثتهم.

****

١- أيام في طشقند وسمرقند وبخارى ١/٦

لقد كان الأمل يراودني منذ مدة طويلة في الذهاب إلى جمهورية أوزبكستان، وذلك لأنها درة فاخرة، وكنز ثمين؛ ففيها ديار الإسلام العظام ومدنه التاريخية الجليلة: طشقند - وتعرف قديمًا ببلاد الشاش- ومنها: القفال الشاشي الفقيه الشافعي المشهور.

وترمذ ومنها: الإمام محمد بن عيسى الترمذي صاحب السنن المشهورة، ومنها الحكيم الترمذي صاحب «نوادر الأصول».

وبخارى: ومنها الإمام محمد بن إسماعيل البخاري صاحب الصحيح الكتاب الذي ليس له نظير في الدنيا.

وسمرقند: ومنها: أبو الليث السمرقندي الزاهد، وأُلُغ بك حفيد تيمورلنك السلطان العالم صاحب المدرسة المشهورة.

وفرغانة، وأنديجان، وأوش، وقوقند، ونسف، وخوارزم، في مدن وقرى كثيرة جدًّا بعضها قائم وأكثرها زال وباد، وقد خرج من تلك المدن والبلدات خلق لا يحصيهم إلا الله تعالى كان لهم أثر جليل في إنشاء الحضارة الإسلامية ورفع بنيانها، وأثر في الجهاد في سبيل الله تعالى، وفي تعليم العلوم الشرعية ونشرها.

ولا يمكنني في هذه العجالة أن آتي على أعمالهم، ولا أن أورد ولو طرفًا من جهودهم فهي أعظم من أن يحصرها البشر أو يأتي عليها العادّون، ولقد قرأت أن هناك موسوعة تطبع في القاهرة قد حصرت ما علمته من علماء تلك المناطق فخرجت بثلاثة آلاف عالم، وأرى - والله تعالى أعلم- أن العدد أضعاف ذلك مرات وكرات، قد طوى كثيرًا منهم النسيان والإهمال، ودرست آثارهم بسبب الحروب الضخمة التي مرت بها المنطقة، من اجتياح مغولي إلى تدمير روسي قيصري، إلى فظائع ووحشيات الغزو الشيوعي البلشفي، مما ضيع كثيرًا من ذلك التراث الرائع، وذهب به أدراج الرياح، فيالله أين تلك المصنفات الملاح، وأصحابها السادة الأقحاح، ذهب معظم ذلك، وفني أكثر ما هنالك:

إلى ديان يوم الدين نمضي وعند الله تجتمع الخصوم

صدق أبو العتاهية رحمه الله.

وأعود فأقول: كان الأمل يراودني في الذهاب إلى تلك المغاني، وإمتاع عيني برؤية أطلال تلك المباني، والتجوال في هاتيك الآثار، التي انقضت لبنائها الأعمار، وفنيت فيها أجيال تلو أجيال، ولقد حاولت ذلك عندما كنت في ألماتا عاصمة جمهورية قزقستان سنة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م فلم أظفر بشيء، ثم عدت السنة الماضية سنة ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م إلى قزقستان فلم أستطع، حتى جاء الله تعالى بالفرج؛ إذ أخبرني أخي العامل الفاضل الدكتور الاقتصادي صالح بادحدح أنه رتب لإقامة مؤتمر عن الحضارة الأوزبكية مع بعض أهل الخير تحت رعاية «الإيسيسكو» وهي المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم ومقرها الرباط، وطلب مني المشاركة ببحث، ولا أكتمكم أني فرحت بذلك فرحًا لم أعهده من نفسي، وليس هو من طرائقي ورسمي، لكنه الهوى

الغالب، وهو - كما تعلمون- للقلوب جالب، فأعددت البحث وهو عن مدن جمهورية أوزبكستان التاريخية التي بقيت إلى اليوم، وعرجت على بعض مشهور ما اندثر منها، وشاركت مع باحثين من مصر والمغرب وتركيا والعراق وأوزبكستان.

وشددت الرحال وأنا ممتلئ حبورًا وسعادة، وذلك لقصدي أوزبكستان ، ثم لأنها ستكون عبر مدينة إسطنبول التي لابد من المكث فيها قرابة ثنتي عشرة ساعة قبل أن يحين موعد رحلة طشقند، وإسطنبول هي المدينة التي أحببت، وإليها ترددت، وعليها عرّجت عشرات المرات، ولم أزرها في مرة إلا وانهمرت مني دموع، وراودتني أحاسيس ومشاعر لا أعرف كيف أصفها، ولا أدري بم أوقفها، وذلك لأنها غالبًا ما تكون أمام الناس، وهذا أمر لا أحبه لنفسي لكن ما الحيلة ودموع المحبين لا سبيل عليها ولا طريق لمنعها، وغالبًا ما تكون هذه الدموع في الفاتح، ذلك الجامع العظيم، والمبنى الجليل، لا لعمارته ففي إسطنبول من الجوامع البواهر ما يفوقه بكثير لكن ربما لعظمة بانيه ولجلالة الفتح، ومن أراد تذكر عزة الإسلام والاغتراف من تلك الذكريات العظام فلا غنى له أبدًا عن التعريج على إسطنبول، والارتشاف من تلك الغيول - والغيل عند العرب مجتمع الماء- .

ولا أدري ما الذي دهى كثيرًا من موظفي الأتراك الذين أخالطهم في المطارات والفنادق والمجامع الرسمية؛ فأكثرهم مكفهر الوجه، نادر البسمة، ليس بموطأ الأكناف، ولا بحسن الأخلاق، قد رأيت فيهم ذلك حتى اعتدته، وعرفت منهم ذلك إلى أن ألفته، نعم إن أكثر من رأيته من الأتراك من إخواننا الذين نألفهم ويألفوننا ومِن غيرهم تعلو ملامحهم الهيبة ويغلب عليه الجد الممزوج أحيانًا

بالشدة، لكني أتحدث عن الموظفين الرسميين والعاملين في المطارات والفنادق والمطاعم فعلى كثرة ما ذهبت إلى ذلك البلد العزيز إلى نفسي والأثير لدي والقريب إلى قلبي لم أجد إلا قلة قليلة ترحب بالغريب كترحاب العرب وتؤنسه وتسر به كما يحدث في ديارنا، فلا أدري أهذا أثر من آثار تلك المرحلة السوداء الأتاتوركية التي غشيتهم قرابة تسعين عامًا، أم أن هذا أمر مغروس في طبائع أكثرهم، لكن هذا ما لمسته في زياراتي الكثيرة لإسطنبول وطرابزون ويلوا وبورصة وأويلات وغيرها، وأرجو ألا أكون قد قسوت عليهم أو غمطتهم حقهم؛ إذ إني أتحدث عن أكثر من رأيت، ولقد رأيت فيهم قلة من الإخوان يخالفون هذا الذي ذكرت، ويجانبون ما وصفت، لكنهم قلة قليلة على كل حال.

ولما هبطت مطار إسطنبول كان الوقت فجرًا، فأُخذت - بعد لأْي- إلى فندق على حساب الخطوط التركية، فنوجئت برداءة الفندق والمنطقة التي هو فيها، وكل شيء فيه سوى النوم لابد من أن أؤدي ثمنه فعجبت من هذا التصرف الذي يخالف فعل كل شركات الطيران الكبيرة في العالم، لكني لم آبه بذلك إذ كنت مشتاقًا للصلاة في الفاتح، فجاءني بعد الظهر أخي في الله أبي بشر أسامة الخطيب، وأخذني إلى جامع الفاتح فأدركته وقت العصر، فجمعت الفرضين ونلت الغرضين: العبادة وقضاء اللبانة، وجلست في الجامع بعد الصلاة قليلاً، فقرأ الإمام الحزب على العادة التي جروا عليها قرونًا، والقوم مطرقون مستمعون لم يغادر منهم أحد إلا أقل من القليل، وفيهم صبر عجيب على تلك الأحزاب والأوراد لا يقوم أكثرهم حتى يفرغ الإمام منها وقد يطول بعضها، وبعد الفراغ صافحت الإمام وعانقته فقد عرفته قبل ذلك، وسألته عن الشيخ أمين سراج، فأخبرني بوجوده وذهب بي إليه في غرفته في الجامع،

والشيخ أمين هو سراج الجامع؛ فهو المدرس فيه منذ زمن طويل، وقد قارب التسعين، وهو ممن أدرك الهالك مصطفى كمال، أدركه شابًّا، وقد هلك سنة ١٣٥٨ هـ /١٩٣٨م، فرحب بي الشيخ وفرح بمقدمي جزاه الله خيرًا، وهو من القلائل الذين وصفتهم آنفًا، وكان الدكتور حمدي أرسلان هنالك، وقد تحدثت عنه في إحدى حلقات «أيام في إسطنبول» ولما أخبرت الشيخ بمقصدي سُر، وتمنى لو كان معي فهو لم يزر تلك البلاد قط، وأخبرني أنه سيذهب معي دكتور باحث تركي وهو أحمد طوران أرسلان من كلية الإلهيات في جامعة إسطنبول وهاتفه وأنا جالس عنده وجعلني أحدثه، واتفقنا أن نتقابل ليل ذلك اليوم في المطار، ثم خرجت فأولم لي أخي المفضال أبو بشر في مطعم فاخر حسن الطعام جدًّا، ثم أخذني إلى المطار حيث قابلت الدكتور أحمد طوران أرسلان ومعه مجموعة من الباحثين الأتراك والمصريين والمغاربة، وتعارفنا، ومن ثم أقلتنا الطائرة إلى مطار طشقند في قرابة أربع ساعات ونصف لنصل قبل الفجر هنالك.

وطشقند عاصمة جمهورية أوزبكستان، فيها قرابة ثلاثة ملايين نسمة، وأوزبكستان سكانها قرابة ثلاثين مليونًا فهي أكبر جمهوريات تركستان الغربية من حيث عدد السكان ، أما أكبر الجمهوريات مساحة فهي قزقستان، إذ هي أكبر بلد إسلامي في العالم ومساحتها ثلاثة ملايين إلا ربع المليون من الأكيال المربعة، ويأتي بعدها السودان ثم الجزائر ثم المملكة السعودية.

وتركستان الغربية تتألف من خمس جمهوريات استقلت عن الاتحاد السوفيتي الهالك سنة ١٤١١هـ/١٩٩١م وهي أوزبكستان وقزقستان وطاجيكستان وتركمانستان وقرغيزيا، أما تركستان الشرقية فلا زالت تحت نِيْر الاحتلال الصيني

البغيض وعاصمتها كاشغر، ولما استقلت تلك الجمهوريات سارع إليها اليهود والنصارى لاقتسام ثرواتها ولاغتنام كنوزها وتأخر المسلمون كعادتهم فلم يفلحوا في استثمار تلك الفرصة السانحة، لكن لكل أجل كتاب، والله تعالى يخلق ما يشاء ويختار، جل جلاله وعز في عليائه وسلطانه.

***

٢- أيام في طشقند وسمرقند وبخـــــارى ٢/٦

وصلت الطائرة إلى مطار طشقند قبل الفجر بثلاث ساعات تقريبًا، وقد استغرقت الرحلة من إسطنبول أربع ساعات ونصف الساعة تقريبًا، فلما ولجت صالة المطار مع الباحثين الذين اجتمعوا في الرحلة معًا فوجئنا باستقبال حافل، ومكثنا في الصالة الخاصة محاطين بالعناية والتكريم حتى فرغوا من ختم الجوازات وإحضار الحقائب، وقد جلست إلى السفير المصري فسألته عما نسمعه من تضييق في أوزبكستان على المسلمين الصالحين وإيذائهم فقال لي: لا يوجد تضييق والأمور طيبة ، وحاول أن يصرفني عن هذا الحديث فلم أفهم إلا بضغطة على قدمي فتحت مسالك عقلي !! فكففت عن الكلام في هذا الموضوع ، وعلمت أنه من الممنوعات المحرمات خاصة في صالة التشريفات !!

وفاجأونا بخبر متعب ألا وهو أنهم قد قرروا تكريمنا بتخصيص قطار خاص ينقلنا إلى سمرقند !! ولم أكن أريد هذا بل كنت أرغب في المكث في طشقند قليلاً للراحة ومن ثم الانتقال بالطائرة إلى سمرقند لكن كان هذا أمرًا قد فُرغ منه قبل مجيئنا فاستسلمنا لهذا وركبنا القطار في الساعة الخامسة قبل الفجر لنصل إلى سمرقند في التاسعة صباحًا، وفي القطار صلينا الفجر في إحدى غرفه، وأذنت لدخول الوقت فبلغني بعد ذلك أن خبر أذاني وصل

لرئاسة الجمهورية ، وأن هذه هي المرة الأولى التي يجرؤ فيها شخص على الأذان في القطار !! ؛ إذ كيف للقوم أن يؤذنوا وقد كان عقوبة ذلك هو الإعدام في الأيام السوداء الخالية ، وقد استمر القوم على كثير مما كان من التضييق زمن الشيوعيين ، فإنا لله وإنا إليه راجعون فنحن في مكان تحاصر فيه شعائر الإسلام أيما محاصرة .

ولقد بالغوا في إكرامنا، وأحضروا ألوانًا من الطعام والشراب والفاكهة حتى أنهم أتوا بأكلتهم الشعبية «بلوف» - وهي أرز بلحم- في السابعة صباحًا !!

ثم لما وصلنا إلى رصيف محطة سمرقند استقبلونا استقبالاً رسميًّا، وكان معنا نائب رئيس الوزراء، وأحضروا من يضرب الطبول وينفخ في الأبواق، وأتوا بفتيات غير محجبات معهن الورود ليقدمنها إلى أعضاء الوفد - هذا والمؤتمر إسلامي!!- فانسللت إلى القاعة هربًا من ذلك الموقف فاللهم غفرًا، وإنما جرى هذا المنكر منهم لأنهم قد خرجوا للتو من استخراب روسي قيصري ثم بلشفي دام عليهم مائة وثلاثين عامًا عجافًا، والقوم لا يعرفون من الإسلام إلا القليل فمثل هذا الذي جرى منهم إنما هو أمر هين نسبيًّا، والله المستعان ومنه العفو والغفران.

وحدث مثل هذا في حفل استقبال المحافظ لنا في سمرقند حيث أتوا بامرأة غير محجبة تغني ومعها فرقة موسيقية فلم أر أنه يسعني البقاء فخرجت خارج القاعة حتى فرغت ثم عدت، ثم عادت فخرجت ثم عدت وهكذا دواليك، والقوم في دهشة، وجاء بعضهم فكلمني فبينت له حرمة أن تغني امرأة أمام الرجال، فجادلني بأن هذا غناء قومي ولا بأس به لكني أكدت له حرمة هذا

في الشرع وأنه لا يجوز فيئس مني وتركني، وأُعيد هذا أيضًا إلى ما القوم فيه من بعد عن الدين بعد احتلال واستخراب طويلين.

ثم لما وصلنا إلى قاعة الاستقبال في رصيف المحطة كان المحافظ في استقبالنا، وارتجل كلمة ترحيبية ترجمها أحد المرافقين، ثم بعد استراحة قصيرة أخذونا إلى الفندق فوصلنا قرابة العاشرة، وأخبرنا المنظمون أننا سنرتاح إلى الواحدة ثم نتغدى ونذهب إلى الأماكن الأثرية، وهذا الذي جرى، وتحركت بنا الحافلة قبل الثالثة بقليل.

وتوجهت بنا الحافلة إلى قبر الإمام البخاري فسلمت عليه السلام الشرعي، وتذكرت ذلك العملاق العظيم وأياديه البيضاء الرائعة على علم الحديث النبوي، وكان هناك من استقبلنا وأوجز لنا سيرة الإمام وصنيعه في صحيحه، ثم دلف بنا إلى القبر فشرفت بالسلام عليه، ومما أزعجني حقًا ذلك البناء الهائل الذي بني فوق القبر وقد ظهر فيه آثار السرف والضخامة المبالغ فيها، ولو رأى ذلك الإمام لأنكره ولما أسعده، كيف لا وهو مخالفة واضحة لهدي رسول الله ﷺ.

ومن ثم ذهبت بنا الحافلة إلى منطقة شاه زندة ومعناه عندهم «الشهيد الحي» ويريدون به قُثَم بن العباس رضي الله عنهما حيث يزعمون أنه دفن هناك، وهذا فيه خلاف بين المؤرخين والله أعلم بالصواب، ثم جالوا بنا بين قبور كثيرة كلها قد بني عليها أضرحة ضخمة عالية، وهي لقواد الدولة التيمورية - التي كان سلطانها تيمورلنك- ولأقرباء السلطان، وهي غاية في الضخامة كما أسلفت، وقد تعجبت طويلاً عندما رأيتها وسألت نفسي وبعض من كان معي: ما هي الفائدة التي يجنيها المسلمون من هذه الأبنية الضخمة؟

وكيف دخلت على المسلمين هذه العادات؟ وكيف نسوا أمر النبي ﷺ لعامله: «لا تدع صورة - أي تمثالاً- إلا طمسته، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته»؟!

وقد أجاز الفقهاء أن يعلوا القبر قدر شبر ليتميز عن سائر الأرض وليُصان، فكيف بنا اليوم وقد علا القبر إلى متر أو يزيد، وبني فوقه بناء قد يبلغ قرابة مائة متر بل قد يزيد؟!

ثم مروا بنا مرورًا سريعًا على ضريح تيمورلنك، وهو أضخم هاتيك الأضرحة، ورأيت من الحافلة «بيبي خانوم» وهو بناء ضخم هائل بناه تيمورلنك تخليدًا لذكرى زوجه بيبي خانوم، وبدأ بناءه بعد انتصاراته التي حققها في الهند.

ثم أولم لنا المحافظ في فندق فاخر، وبدأ المحافظ بكلمة ترحيبية، وتلاه الأستاذ النشط مجدي مرسي - الملحق الثقافي بالسفارة المصرية الذي أنشأ المركز الثقافي المصري لتعليم اللغة العربية، وله آثار جيدة- فألقى كلمة ترحيبية شاكرًا الدولة على استضافتها المؤتمر الدولي العلمي: «أوزبكستان موطن علماء ومفكري العالم الإسلامي العظام» ثم بدأ حفل العشاء على ما وصفت آنفًا، ولما انتهى الحفل أخذونا إلى الفندق وأخلدنا إلى الراحة.

وفي اليوم التالي بدأ المؤتمر في الساعة التاسعة والنصف بالكلمات الترحيبية المعتادة من قبل قيادات رفيعة في الدولة مما يظهر الاهتمام به والعناية بأشخاصه، وكذلك تحدث الأستاذ عبدالإله بن عرفة مندوبًا عن «الإيسيسكو» وهي المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، وشكر الدولة وتحدث حديثًا موجزًا عن الفتح الإسلامي للمنطقة، وعن حضارتها وآثارها، وذكر أمرًا مهمًّا جدًّا ألا وهو

الجناية التي حدثت على اللغة العربية في استبدال الحروف اللاتينية ثم الروسية بها سنة ١٩٢٧ ثم سنة ١٩٤٠م ، ودعا في لفتة بارعة إلى إعادة اللحمة للغة العربية مرة أخرى، ثم عرج على اختيار طشقند عاصمة للثقافة الإسلامية لسنة ٢٠٠٧م، وأهمية ذلك، وسرد العواصم التي اختيرت، فبين أن العاصمة الأولى التي اختيرت عاصمة للثقافة سنة ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م هي مكة المكرمة، ثم اختيرت ثلاث مدن لسنة ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م وهي حلب عن المنطقة العربية، وتبنكتو عن المنطقة الإفريقية، وأصفهان عن آسيا، ثم اختيرت ثلاث مدن لسنة ١٤٢٧هـ /٢٠٠٧ م وهي طشقند عن آسيا، وطرابلس وفاس عن المنطقة العربية، وداكار عن المنطقة الإفريقية، وختم كلمته الموفقة بعد ذلك.

ثم تحدث الأستاذ الدكتور يوسف عبد الغفار من البحرين وهو رئيس جامعة المملكة فيها، وذكر في حديثه تاريخ المنطقة وأهميتها قديمًا وحديثًا، ثم وازن بين منجزات الحضارة الإسلامية العظيمة التي شاركت في صنعها أوزبكستان قديمًا وبين ما يتهم به الإسلام اليوم من تهم شتى، وبين أن حضارة عظيمة كهذه لا يمكن أن توصم بما توصم به من قبل أعداء الإسلام قديمًا وحديثًا، ثم شكر الدولة والإيسيسكو وكل من ساهم في إقامة هذا المؤتمر.

ثم تحدث غير هؤلاء إلى أن خُتمت جلسة الافتتاح بشيئين: بفيلم وثائقي تسجيلي لوقائع مؤتمر إسلامي جرى في أغسطس سنة ٢٠٠٦م، ويُعد المؤتمر الأول الذي يتحدث عن «مساهمة أوزبكستان في تطوير الحضارة الإسلامية»، وأهدى القائمون على المؤتمر نسخة من الفيلم لكل باحث، والشيء الآخر الذي ختمت به جلسة الافتتاح هو أول بحث ألقي وهو: «أوزبكستان مركز علمي هام في بلاد المشرق الإسلامي في العصور الوسطى» للباحث الدكتور

أحدجان حسنوف من أوزبكستان وذكر في البحث أن هناك احتفالاً جرى بمناسبة تكريم الفلكي أحمد الفرغاني، فسأل الباحث أحد علماء الفلك من جورجيا: هل يمكن المقارنة بين أوزبكستان وجورجيا في علم الفلك؟ فقال: لا يمكن، فبينهما كما بين السماء والأرض، فأحمد الفرغاني وأُلُغْ بيك - السلطان الفلكي العالم، حفيد تيمورلنك- لم يكن هناك مثلهما على الأرض !! وذكر الباحث أنه قد كان هناك عشرة مراكز ثقافية وعلمية عظمى في العالم الإسلامي كان منها ثلاثة فيما يعرف بأوزبكستان اليوم، لكن الباحث تساءل عن خطأ - كما يرى- وقع فيه ياقوت الحموي، عندما قال: إن ياقوتًا يقول في كتابه «معجم البلدان»: إن الأتراك والبيزنطيين هما أعداء الإسلام، فتساءل عن هذا متألمًا، فأردت أن أعقب بأن ياقوتًا لا يريد بهذا الأتراك المسلمين طبعًا إنما يريد أمة الخطا والأتراك غير المسلمين والدليل على هذا أن ياقوتًا وغيره عندما يذكرون حدود بلاد ما وراء النهر يذكرون أنه يحدها من جهة الشرق الترك، أردت أن أعقب بهذا لكن قيل لي إنه غير مناسب لكون الباحث معظّمًا عند قومه !! وطُلب مني إرجاء التعقيب إلى وقت آخر ، وقد ألقى الباحث بحثه بلغة عربية متوسطة، وهذا يذكر له فيشكر فجزاه الله خيرًا، وقد بينت له رأيي في المسألة بعد المحاضرة.

ثم ابتدأت الجلسة الأولى برئاسة الدكتورة ماجدة مخلوف من مصر، وجاءت بحجابها جزاها الله خيرًا بينما جاءت بعض النسوة العربيات بغير حجاب، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وألقى البَحَثة بحوثهم، فمن تلك البحوث: أبو منصور الماتريدي وكتابه «تأويلات القرآن»، ألقاه الأستاذ الدكتور سعاد يلدرم، أستاذ الدراسات

الإسلامية في كلية الإلهيات، في جامعة مرمرة بإسطنبول، وكان قد ألقى بحثه بالعربية جزاه الله خيرًا، وكانت لغته متوسطة.

ثم ألقت الدكتورة ثريا كريموفا بحثها «نشاط علماء أوزبكستان في المراكز العلمية في العصور الوسطى» وألقته باللغة الأوزبكية، وهي مديرة معهد الاستشراق في مجمع علوم أوزبكستان.

ثم ألقى د. محمد آق قوش بحثه: «دور المتصوفين الأوزبك في نشر الإسلام» ألقاه باللغة العربية فجزاه الله خيرًا، وهو أستاذ الدراسات الإسلامية بكلية الإلهيات بجامعة أنقرة.

ثم تحدث د. عبد الحكيم الجوزجاني وهو أستاذ كرسي في جامعة طشقند الإسلامية، وبحثه بعنوان «مساهمة برهان الدين المرغناني في تطور علم الفقه» وألقاه باللغة العربية فجزاه الله خيرًا.

ثم ألقى د. دربيك رحيم جانوف - أستاذ كرسي في جامعة طشقند- بحثه باللغة العربية «مبادئ الحنفية والتسامح الديني» وهو أضعف بحث ألقي في ذلك اليوم بسبب الخلط فيه وعدم وفاء المادة الملقاة بعنوان البحث.

ثم ألقى د. أحمد رجب من مصر بحثًا عن إسهام المعماريين الأوزبكيين في بناء المدارس في أوزبكستان في القرن العاشر الهجري، وبه انتهت الجلسة الأولى، واليوم الأول من أيام المؤتمر، واستعد الباحثون لمغادرة سمرقند لإكمال المؤتمر في بخارى في اليوم التالي.

***

٣- أيام في طشقند وسمرقند وبخـــــارى ٦/٣

انتهت أعمال اليوم الأول للمؤتمر في سمرقند، وأُخذنا إلى محطة القطار وركبناه في رحلة استغرقت ثلاث ساعات إلى بخارى، حيث استقبلنا في رصيف المحطة كما استقبلنا في سمرقند، وقد ذكرت هذا في الحلقة الماضية فلا أعود لوصفه حفاظًا على وقت القارئ.

ثم أخذنا إلى فندق قصر بخارى وقدم العشاء، ثم لم يكن هناك إلا الراحة والإخلاد إلى النوم، لكن جاءني إلى الغرفة ثلاثة من طلبة المدرسة الشرعية وتحدثت معهم بحرية عن بعض الأوضاع الاجتماعية في البلاد، وذلك أني لم أجد أحدًا أتحدث معه عن البلاد سوى الرسميين فقط، وهؤلاء في كل زمان ومكان لا يبثون كل ما في نفوسهم، وقد وجدت من هؤلاء الشبان حماسة وقدرة على الحديث والحوار باللغة العربية، وقد نصحتهم بنصائح ثم انصرفوا، جزاهم الله خيرًا ونفع بهم.

وفي اليوم التالي بدأت الجلسة الثانية للمؤتمر، وقد طرح فيها عدة بحوث منها: «الأوزبك في تركيا» للدكتور التركي أكرم كولتشان وقد تحدث بالعربية جزاه الله خيرًا، وبين في بحثه أن الأوزبك كانوا إذا أرادوا الحج مروا بإسطنبول أولاً ويصلون الجمعة مع السلطان ثم يستأذنونه استئذانًا رمزيًا في الحج، وذكر عن أحد هؤلاء أنه لما جاء إسطنبول وجد أن حرب القرم قد

بدأت فشارك في الجهاد، ثم شارك مع الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، ثم بعد الفراغ من الحرب سنة ١٣٣٨هـ/١٩١٨م ذهب للحج ثم عاد ليجد سوريا في حرب مع الفرنسيين فشارك في الجهاد حتى استشهد ودفن في طرطوس سنة ١٣٤٠هـ/١٩٢٠م فرحمه الله رحمة واسعة، وهذا يبين كيف أن المسلمين جسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر.

وذكر في بحثه أيضًا جملة من أخبار المجاهدين، وذكر أيضًا بعض أخبار التكية الأوزبكية في إسطنبول التي بنيت بأمر السلطان محمود الأول.

وكان من الأبحاث أيضًا بحث الدكتورة زهرا قادروفا وتحدثت عن «الأسس التاريخية والفلسفية للتسامح الديني والحوار بين الحضارات في أوزبكستان» فتحدثت عن كل شيء تقريبًا ولم تذكر الإسلام وهو الأساس العظيم للتسامح بل هو الأساس الأول للبحث في هذا الموضوع ، إنما اكتفت بذكر بعض النصوص عن أبي الريحان البيروني والفارابي، فقام أحد الباحثين فعقب على بحثها بأنها أغفلت الأساس الصوفي ووحدة الشهود وجهود النقشبندية في هذا الباب، فلم أر إلا التعقيب فطلبت الكلمة وأُعطيتها، وبينت للدكتورة والحضور أن البحث أغفل أساسين مهمين جدًّا: الأساس الأول: آلاف الكتب الفقهية التي ألفها العلماء الأوزبك على مدار التاريخ ووضعوا في ثناياها الأسس الرائعة للتعامل مع غير المسلمين في البلاد الإسلامية وفي خارجها، وهذه الأسس مستندة إلى الكتاب والسنة، والأساس الآخر هو الواقع التاريخي حيث إن أوزبكستان زخرت بعديد من القوميات غير الإسلامية التي عاشت في وئام وسلام لا مثيل له، وسمح لها بأداء شعائرها

بحرية، ولم ينقل التاريخ الطويل أي اعتداء عليها، وهذا من أعظم الأسس التي تبين التنزيل العملي لمبادئ الإسلام على الواقع ، وتردع الذين يتهمون الإسلام بالتهم الغريبة التي نسمعها اليوم.

ثم رفعت الجلسة لتناول الشاي والفطائر.

وبدأت الجلسة الثالثة ببحث مهم وهو «دور الأمير تيمور والتيموريين في قيادة الأمة الإسلامية» للدكتور زكريا كتابجي الأستاذ في جامعة قونيا بتركيا، وكان باللغة العربية، فلما بدأ الدكتور بحثه طلب تغيير العنوان إلى عنوان آخر متعلق بتاريخ أوزبكستان الإسلامي، ومن أهم ما ذكره في البحث أن هناك أمرًا مؤسفًا ألا وهو استيلاء الشيوعيين على مقاليد الأمور في تركستان، ولم يكتفوا بالسيطرة الاقتصادية والسياسية بل تعدى ذلك إلى طمس الهوية الإسلامية، وفصل تركستان عن العالم الإسلامي بستار حديدي يشبه سور الصين العظيم، ثم ذكر نعمة الله على التركستان بالانعتاق من الشيوعية وحمد الله على ذلك، ثم أنهى بحثه بلفتة بارعة رائعة حيث نادى رجال الدولة الأزبكية وطلب منهم العودة إلى دين الإسلام، كيف لا وهم أحفاد خانات - أي ملوك- الأوزبك القدماء الذين ساروا على نهج الإسلام في وقت الحضارة الذهبية للإسلام، وكرر هذا الطلب منهم ثلاث مرات بصيغ مختلفة، وهذا - في رأيي- أهم ما قيل في المؤتمر مطلقًا، وذلك لأن وسائل الإعلام الأوزبكية نقلته، وكان هناك حضور شعبي لا كما كان الأمر في سمرقند فقد كان الحضور مقصورًا على الباحثين، ولأن قائل ذلك باحث تركي له قدره ووزنه بين الأتراك بالمعنى الواسع أي في التركستان وما تفرع منهم في الأناضول - تركيا اليوم- فجزاه الله خيرًا.

ثم تحدثت الدكتورة ماجدة مخلوف من مصر عن «الأوزبك في مصر: اللحظات التاريخية» وهي رئيسة قسم اللغات الشرقية وآدابها بجامعة عين شمس في مصر، وذكرت في بحثها أن أول الأوزبك الذين حكموا مصر هم آل طولون: أحمد وابنه خُمارويه، وكان لأحمد أيادٍ جليلة في رد البيزنطيين، وكان منقادًا إلى الشريعة كريمًا محسنًا إلى شعبه محبوبًا منهم.

ثم جاءت الدولة الإخشيدية وهي أوزبكية أيضًا.

وذكرت أيضًا أن الأوزبك كان لهم مناصب ووظائف قيادية رفيعة في دولة المماليك، وكانوا أمراء فيها أيضًا، وكان بين الأوزبك والمماليك السلاطين مصاهرات عديدة ، وهناك أسر أوزبكية ما زالت تعيش في مصر إلى اليوم وتحتفظ بأسمائها.

ثم عرضت في آخر بحثها عدة صور جميلة عن آثار الأوزبك في مصر مثل جامع ابن طولون الباقي إلى اليوم بحي السيدة زينب بالقاهرة.

وعرضت صور لمسجد الأمير أوزبك اليوسفي الذي أنشأه في أول القرن العاشر الهجري وهو اليوم بحي القلعة بالقاهرة.

ومما يحمد لهذه الدكتورة الفاضلة أنها جاءت بحجابها، وهذا أمر مهم لأن هناك نسوة وفتيات كثيرات استمعن لمحاضرتها وليس بينهن امرأة محجبة، فعسى أن تكون قدوة لهن، إن شاء الله تعالى.

ثم تحدث الدكتور حامد الطحاوي، وهو أستاذ بكلية الآداب بجامعة الزقازيق في مصر، تحدث عن الحديقة الأوزبكية في القاهرة مفصلاً بداية إنشائها وعمل الأمير الأوزبكي في ذلك، إلى أن وصل الباحث إلى وضعها في

العصر الحديث.

ثم تحدثت الدكتورة مولودة يوسفوفا، وهي موظفة في معهد الفنون في أكاديمية الفنون، وقد تحدثت عن «خصائص الهندسة المعمارية الإسلامية في أوزبكستان» وكان حديثها مشفوعًا بعرض مرئي.

ومن أهم ما ذكرته أنه في القرون التي قبل القرن السادس عشر الميلادي لم تكن تبنى الأضرحة فوق القبور التزامًا بتعاليم الإسلام خاصة في بخارى، وإنما انتشرت بعد ذلك على قبور النقشبندية، وهذا الذي أوردته أجاب على سؤال كان يدور في نفسي ذكرته في الحلقة السابقة.

ثم تحدث الأستاذ الدكتور عبيد الله أواتوف، وهو مدير خزانة المخطوطات في جامعة طشقند الإسلامية تحدث عن: «أوزبكستان موطن المحدثين العظام» وقد سرد أسماء بعض المحدثين ثم خص أربعة بالحديث لكن قبل ذلك أشار إشارة حسنة إلى أن الحديث هو المصدر الثاني المهم بعد القرآن، وذكر أن الأحاديث مصدر مهم لحياتنا المعاصرة، ونستفيد منها في جوانب عديدة منها تربية الأولاد على الإسلام، ثم عرض عرضًا موجزًا حياة الإمام الدارمي السمرقندي، وكتابه «المسند»، ثم عرض حياة الإمام البخاري رحمه الله تعالى عرضًا موجزًا أيضًا، وقد ذكر أن كتابه الجامع الصحيح لم يسمح الروس بطبعه ولا تداوله، لكن بعد الاستقلال نشر كتابه واحتُفي بصاحبه رحمه الله تعالى.

ثم عرض حياة الإمام الترمذي، ثم ذكر المحدث أبا سعيد الهيثم بن كليب الشاشي، ثم ختم حديثه بأنه يجب على الأوزبكيين ترجمة حديث رسول الله ﷺ

إلى اللغة العربية والعناية بآثارهم الحديثية، وهذا هدف مشترك مع العرب، كما قال.

ثم تحدث أخيرًا الأستاذ الدكتور زاهد إسلاموف وهو نائب مدير جامعة طشقند الإسلامية، وموضوعه: «مكانة العلماء الشاشيين في تطوير الدين الإسلامي وفلسفته» والشاش هي طشقند الآن، وبدأ حديثه بأن أوزبكستان بعد الاستقلال صارت قادرة على إحياء تراثها ونشره، وهناك مؤتمرات عالمية أقيمت بعد الاستقلال على أرض أوزبكستان لإحياء ذكرى العلماء، وأسست جامعة طشقند الإسلامية، وترجمت معاني القرآن الكريم والأحاديث، ورممت الجوامع القديمة الأثرية المهمة، وذكر أن اختيار طشقند لتكون عاصمة للثقافة الإسلامية لسنة ١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م له دلالة كبيرة على عظمة تراث هذه المنطقة وتاريخها، ثم ذكر أمثلة على العلماء والصلحاء الذين زخرت بهم بلاد الشاش «طشقند» منهم أبو بكر القفال الشاشي الفقيه الشافعي المشهور، وذكر أن اسم طشقند قد التزمته بلاد الشاش في القرن السادس عشر.

وختم بأن هذا البحث وأمثاله يغرس في قلوب الشباب العزة والفخر بهذا التراث، وأنها مقدمة مهمة لدراسة المجتمع الأوزبكي وتراثه.

ثم عقب بعض الباحثين على بعض الأبحاث، وانتهت أعمال هذه الجلسة، وطُلب منا أن نتغدى ونعود سريعًا للجلسة الثالثة التي حفلت بعدة بحوث منها بحث قدمته عن «المدن الأوزبكية التاريخية: عرض وتحليل».

ثم تحدث الأستاذ الدكتور عبد اللطيف العبيد عميد كلية اللغات الخارجية في تونس، تحدث في موضوع مهم وهو «أهمية تدريس اللغة العربية في

أوزبكستان وفي آسيا المركزية» أي آسيا الوسطى، وذلك أن الهالك ستالين غير اسم موقع التركستان من آسيا الوسطى إلى آسيا المركزية، وذكر الباحث لأهمية العربية وجوهًا عديدة منها العامل البشري حيث يتحدث العربية ٣٠٠ مليون عربي، وعدد ضخم جدًّا من سكان الدول الإسلامية غير العربية يفهمون العربية ويتحدثون بها، ومنها أن اللغة العربية صارت لغة معتمدة في كثير من الهيئات العالمية، وصار يهتم بها بعض الدول العالمية، ومنها أن اللغة العربية هي لغة دين الإسلام، ومنها أن اللغة العربية هي لغة الحضارة والفنون قديمًا، وهي مرشحة الآن لتعود لسابق مجدها ولتكون لغة الحضارة الإسلامية المنشودة والمرتقبة في هذا الزمان، إن شاء الله تعالى.

وبين بعد ذلك أن أهمية تدريس اللغة العربية في أوزبكستان تنبعث من العوامل السابقة، ولأن هذه اللغة نقلت الدين إلى هذه المنطقة، ولأنها أَثْرت اللغة الأزبكية، ولأن كثيرًا جدًّا من المؤلفات الأزبكية كتبت بها قديمًا، ولأنها كانت لغة التواصل بين سكان هذه المنطقة وبين البلاد العربية، ولأن سكان المنطقة إذا تعلموا العربية تمكنوا من الاطلاع على تاريخهم وثقافتهم، وتمكنوا من الاتصال بالعرب من جديد.

ثم تحدث د. نجم الدين كاملوف وهو أستاذ كرسي في أكاديمية بناء المجتمع بطشقند، تحدث عن «خواجة بهاء الدين نقشبند: حياته وآثاره».

ثم ألقيت بحوث أخرى ختم بها المؤتمر في يومه الثاني والأخير ثم تليت التوصيات في الجلسة الختامية ووزعت شهادات التقدير على المشاركين.

٤- أيام في طشقند وسمرقند وبخارى ٤/٦

التقيت في بخارى في المؤتمر بأستاذ تركي يدرس العربية في جامعة روتردام في هولندا، واسمه مصطفى أوزجان وهو من إسطنبول، وقد أخبرني أن الجامعة في روتردام تشترط لمن يريد أن يدرس العربية والعلوم الإسلامية في جامعتها أن يدرس العربية لمدة سنتين حتى يفهمها، وتشترط على المدرس أن يعرف الهولاندية أو يدرسها حتى يفهمها، وقد ذكر لي أنه درس العربية في مدرسة «خَسَكي» في إسطنبول، و«خسكي» هي زوج السلطان سليمان القانوني، وهي التي أنشأتها، واليوم لها فروع في بعض المدن التركية، وتشترط على من يريد أن يدرس بها أن يكون قد فرغ من الجامعة، وأن يَدْرس بالعربية، ومدة الدراسة سنتان ونصف يدرس فيها الطلاب العلوم الإسلامية والعربية، وهي تابعة لرئاسة الشئون الدينية ولذلك تكون الدراسة فيها بالعربية، وذلك لأن المدارس التابعة لوزارة التعليم يمنع فيها التدريس بالعربية، وكل مدرسة لا تقبل إلا ستين طالبًا فقط، وكان ما ذكره جديدًا عليّ تمامًا.

وأخبرني بأمر جليل وهو أنه كان في هولندة امرأة هولندية أسلمت وتزوجت تركيًّا مقيمًا في هولنده، وتحجبت ولله الحمد والمنة، فزارها الدكتور مصطفى أوزجان في بيت زوجها فذكرت له أنها كانت تحدث نفسها دومًا: لماذا أسلمت وغيرت دينها، فلما كانت حاملاً بابنتها رأت أباها في المنام، رأت

نفسها واقفة على قبره الذي انشق أمامها وخَرج منه أبوها وهو أسود اللون تمامًا من رأسه إلى قدميه بل كان متفحمًا تمامًا، ودعاها لأن تدخل معه إلى قبره فاعتذرت عن عدم قبول ذلك بسبب أنه يضر جنينها الذي في بطنها، ثم قال لها أبوها: أنت دومًا تتساءلين عن سبب إسلامك أليس كذلك فقالت: بلى، فقال لها: وهل يرضيك أن تكوني مثلي، انظري إلى جسدي المحروق وهذا بسبب ما مت عليه من عقيدة فاحتفظي يا بنتي بدينك ولا تتراجعي عنه، فقالت المرأة للدكتور: بعد أن رأيت هذا المنام أيقنت بأني على حق، وأن الإسلام هو الدين الصحيح، ولما أخبرني الدكتور مصطفى أوزجان بهذا سرت القشعريرة في جسدي تعجبًا وتعظيمًا لهذا الخبر، والله تعالى يهدي من شاء بما شاء جل جلاله.

في اليوم الذي ختم فيه المؤتمر دعانا حاكم بخارى إلى عشاء في الفندق نفسه، لكني علمت أنه سيكون هناك مغنية كما كان الحال في عشاء حاكم سمرقند، فاعتزلت العشاء وبقيت في غرفتي حيث أتوا لي بالعشاء، ولله الحمد.

وفي الصباح ذهبوا بنا في حافلة كبيرة لزيارة الآثار، فبدأوا بضريح بهاء الدين نقشبند صاحب الطريقة النقشبندية الشهيرة التي يتبعها غالب أهل المنطقة، وهي طريقة تقل بدعها بالمقارنة مع أكثر الطرق الصوفية، وكان لها فضل كبير في إحياء الجهاد ضد القياصرة الروس ومن بعدهم البلاشفة، فذهبت إلى قبره وسلمت عليه السلام الشرعي، لكني رأيت أمورًا هناك يذوب لها المسلم حزنًا وخجلاً، من طواف حول القبر، وتمسح به بل تمسح باللوح الرخامي الذي كتب عليه نبذة من حياته !! هذا عدا عن الذهاب بالرُضَّع إليه، التماسًا للبركة، وذهاب العروسين هناك للبركة أيضًا!! هذا والمرأة العروس في كامل زينتها !! إنا لله وإنا إليه راجعون كيف انقلبت المفاهيم، وظهر الفساد

حتى صار هو الأصل، وصار المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، والعجيب أن النساء يطفن حول القبور بدون حجاب مما زاد الطين بِلة.

ثم أُخذنا إلى منطقة أخرى مليئة بقبور العلماء والأمراء والقواد والعامة، وفيها من البلاوي ما هو قريب مما في منطقة الشيخ بهاء الدين نقشبند، وإنما يعود ما هم فيه إلى الجهل الشديد الذي عليه أكثر عامتهم، ولعدم استطاعة علمائهم الجهر بالحق، فصارت عقيدة التوحيد التي هي سهلة يسيرة واضحة، صارت مختلطة بهذه البدع الغليظة.

ثم أُخذنا بعد ذلك إلى المدينة القديمة، وهي أصل مدينة بخارى، وفيها مدرسة مير عرب، وقد بناها الشيبانيون لعالم من اليمن يسمونه محمد اليماني لذلك ورد في اسمها كلمة عرب، وهو مدفون فيها، وصلينا في المسجد الجامع الضخم الذي يدعونه «كالون» ومنارته الشهيرة التي هي أطول منارة في آسيا الوسطى، ودرجاتها حلزونية وعددها خمس ومائة درجة، وهي بديعة المثال، جميلة المنظر، وقد صعدت إلى أعلاها مع مجموعة من الإخوة فانكشفت لنا بخارى كلها قديمها وحديثها، وهذه كلها من مباني القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي.

والمدينة القديمة عجيبة في بنائها، والداخل إليها يشعر بشعور غريب مزج فيه الرهبة بالإجلال، وما ذلك - والله أعلم- إلا لقدم البناء مع علوه على وجه غير معتاد، فالقِدَم يورث الإجلال، والعلو والارتفاع يورث الرهبة والمهابة، وأنا أعود إلى القول بأن هذا الذي رأيته -على جلاله وعظمته- إنما هو نوع من العلو في البنان، والسَرَف في غير محله، لكن له اليوم فائدة واحدة مهمة نبهني عليها الدكتور عبد الإله بن عرفة - مندوب الإيسيسكو- ألا وهي

أن هذه المباني صارت اليوم رمزًا يجتمع عليه أهل تلك البلاد فيتذكرون عزة ماضيهم التليد، وجلال مجدهم السليب، وربما تحركهم هذه المباني للعمل على أن يعودوا إلى ما كانوا عليه، وربما ينازع بعض الناس في هذه الفائدة لكن أظن أن لها وجهًا مقبولاً ، والله أعلم.

ثم مرت الحافلة بنا على قلعة بخارى القديمة، والقلعة تسمى بلغتهم قُهُنْدُزْ، وقد قال لي أحد المترجمين المرافقين للباحثين أن الروس لما حاصروا البلد ضربوا القلعة بقنابل الطائرات فدمرت أجزاء منها وسلم المسجد بفضل الله تعالى.

ثم مرت الحافلة بنا على مدارسَ قديمة كثيرة ومساجد أثرية، وعلى خوانق للصوفية، والخوانق جمع خانقاه، وهي ما يعد للصوفية لخلوتهم وتعبدهم، وكان للصوفية دولة في المنطقة وهيمنة وشأن كبير لكن الشيوعيين لما جاؤوا إلى البلاد وعاثوا فيها الفساد ضيقوا على الصوفية جدًّا.

ثم أُخذنا إلى الفندق لنستعد للذهاب إلى طشقند بالقطار أيضًا، ولقد حاول المشرف على المؤتمر والمنظم له أن نسافر بالطائرة لكن المنظمين المحليين رفضوا رفضًا باتًّا، ولم نعلم لرفضهم هذا سببًا، فالمال قد دفع من جهة أخرى خارجية، والمسافة من بخارى إلى طشقند طويلة جدًّا بالقطار إذ تقطع في اثنتي عشرة ساعة بقطار ليلي ذي سرر للنوم، وحاول منظمو الرحلة أن يشرحوا للمنظمين المحليين أننا بحاجة للذهاب بالطائرة لأن في الباحثين من هو طاعن في السن فهو في عشر السبعين، وفيهم من هو مريض لكنهم لم يرضوا ولم يقبلوا، ولم نعرف لذلك سببًا، فالله أعلم، فلما وصلنا إلى الفندق حزمنا حقائبنا وبقينا فيه نحو ساعة، ثم ركبنا الحافلة متجهين إلى محطة القطار، وسألت الله

أن يسهل السفر علينا فمنذ أن خرجت من جدة وأنا في سفر دائم من جدة إلى إسطنبول ثم طشقند ثم سمرقند ثم بخارى ثم طشقند ثم إسطنبول ثم جدة وكل ذلك في ثمانية أيام حتى أرهقني السفر وأتعبني، لكن عند الله تعالى أحتسب ذلك وأرجو ألا يحرمني من ثوابه هنالك.

هذا وقد لحظت أن القوم يعيشون كما كان سكان أكثر البلاد العربية يعيشون قبل ظهور الصحوة؛ فمصر والشام والعراق والمغرب والخليج كان أكثر القوم فيها في بعد في الجملة عن الالتزام بالإسلام في السبعينات والثمانينات وأوائل التسعينات الهجرية/ الخمسينات والستينات وأوائل السبعينات الميلادية، فالحجاب كان نادرًا، ولم يكن هناك نظام إسلامي يحكم الاقتصاد والإعلام والسياسة وسائر وجوه الحياة، ثم ظهرت الصحوة المباركة بفضل الله تعالى فتغيرت الأحوال، أما دول آسيا الوسطى التي زرتها وهي قرغيزستان وقزقستان وأوزبكستان فهي تعيش مرحلة العودة البطيئة إلى الإسلام لكن لم تظهر فيها بعدُ الصحوة، ولم تكتمل لها عوامل اليقظة، وأحسنهن في ذلك قرغيزيا، وما زال الحجاب نادرًا في شوارع ألماتا عاصمة قزقستان، وبخارى وطشقند، ولا زالوا لم يظهر فيهم الإعلام الإسلامي بأنواعه المختلفة ، وكذلك الاقتصاد الإسلامي إلى آخر ما يحكمه الإسلام من كل جوانب الحياة، وللقوم في ذلك بعض العذر؛ فهم قد خرجوا للتو من استخراب روسي قيصري ثم بلشفي طويل جدًّا ناف على مائة وثلاثين سنة، وهم بحاجة ماسة إلى مساعدة البلاد العربية والإسلامية لكن الكثرة الكاثرة منها قد قلبت لهم ظهر المجن وأسلمتهم لمصيرهم، وأنا واثق إن شاء الله تعالى أن هذه الدول التركستانية كلها ينتظرها مستقبل مشرق وسيكون لها أثر كبير في إنشاء الحضارة الإسلامية المرتقبة.

٥- أيام في طشقند وسمرقند وبخـــارى ٦/٥

قد كثر حديث المؤرخين العظماء عن طشقند - وكانت تسمى بلاد الشاش- وسمرقند وبخارى، وذكروها بمداد الفخر والعزة، فمن هؤلاء القزويني حيث قال في بخارى في كتابه «آثار البلاد وأخبار العباد»:

«بخارى مدينة عظيمة مشهورة بما وراء النهر، قديمة، طيبة ...

ولم تزل بخارى مجمع الفقهاء ومعدن الفضلاء ومنشأ علوم النظر ...

ولم تُر مدينة كان أهلها أشد احترامًا لأهل العلم من بخارى».

وقال ياقوت الحموي في معجمه العظيم «معجم البلدان»:

«مدينة قديمة نزهة، كثيرة البساتين، واسعة الفواكه، جيدتها ...».

وقال الحميري في «الروض المعطار»:

«ببخارى بشر كثير لا يحصيهم العد ... ويرجع أهلها من العفة، والدماثة، والأمانة، وحسن السيرة، وحسن المعاملة، وقلة الشر، وإفاضة الخير، وبذل المعروف، وسلامة النية إلى ما يفْضلون به سائر الناس».

وقد تعرضت بخارى للتخريب على يد جنكزخان سنة ٦١٦هـ وفتحها الأوزبك سنة ٩٠٥هـ، ولما احتلها الروس القياصرة كان بها ١٩٧ مسجدًا و١٦٧ مدرسة أغلقها جميعًا الروس ولم يبقوا إلا مسجدًا واحدًا ومدرسة

واحدة !!

ومن أشهر علمائها الإمام البخاري وابن سينا وصدر الشريعة المحبوبي والمحدث الكبير يزيد بن هارون شيخ الإمام أحمد.

وقد احتفلت اليونسكو بمرور ١٥٠٠ سنة على إنشاء المدينة، وقد كانت من القرن السادس عشر إلى بدايات القرن العشرين عاصمة دولة «خانات بخارى» والخانات هم الملوك بلغتهم، وفي سنة ١٨٦٨م جعلها الروس مقاطعة من امبراطوريتهم البائدة، وفي سنة ١٩٢٠م بعد ثورة البلاشفة اللعينة صار اسمها «جمهورية بخارى الشعبية السوفيتية» ثم «جمهورية بخارى الاشتراكية السوفيتية» وقسمت بموجب الحدود التي وضعها الهالك ستالين بين أوزبكستان وطاجيكستان وتركمانستان وذلك بعد أن ألغى إقليم آسيا الوسطى سنة ١٩٢٤م.

وفي بخارى بقايا لعرب قدماء وفدوا على المنطقة دعاة وتجارًا، وأسرى مع تيمورلنك!!

أما سمرقند فقد تبارى المؤرخون في إظهار حسنها وأهميتها، فقد قال ابن بطوطة:

«إنها من أكبر المدن، وأحسنها، وأتمها جمالاً ... وكانت تضم قصورًا عظيمة وعمارة تنبئ عن همم أهلها».

وقال القزويني:

«وليس على وجه الأرض مدينة أطيب ولا أنزه ولا أحسن من سمرقند».

وفتحت على يد قتيبة بن مسلم الباهلي سنة ٨٧هـ/٧٠٥، ثم ملكها

السامانيون بتفويض من المأمون العباسي، ثم توالى عليها الحكام إلى أن خرّبها المغول، ثم بعد إسلامهم عمروها، واتخذها تيمورلنك عاصمة لملكه، ونقل إليها الصناع وأرباب الحرف، وشيد فيها قصورًا جليلة وآثارًا جميلة.

ثم خضعت سمرقند لحكم الشيبانيين لمدة قرنين ونيف، ثم جرت عليها أحوال إلى أن ملكها الروس في القرن التاسع عشر والبلاشفة في القرن العشرين.

كانت سمرقند وبخارى قاعدتين لنشر الإسلام قديمًا في الصين والهند وروسيا، حتى أن دوق روسيا كان يدفع الجزية سنويًّا لأمير بخارى !!

وسمرقند اليوم ثاني مدن أوزبكستان بعد طشقند، وفيها صناعات متعددة، ومراكز للبحث العلمي، ومعاهد علمية وتجارية.

ومن أعظم من ملك سمرقند أُلُغ بيك - وهو حفيد تيمورلنك - وكان محبًّا للثقافة والفنون والعلوم والعمران، وأتى لها بالعلماء من كل حدب وصوب، وكان هو نفسه عالمًا فلكيًّا ومدرسًا للرياضيات، وبنى مدرسة عليا للطلاب يدرسون فيها العلوم كافة، ومن أهم آثاره المرصد الفلكي الضخم المهم، الذي لم يكن مثله في العالم كله، وقد اكتشف الروس ما تبقى منه سنة ١٩٠٨م، ورمموه بعد سنة ١٩٢٠م وبنوا بجواره متحفًا يحوي كتب الفلك النادرة.

وقد احتفلت اليونسكو بمرور ٢٧٥٠ عامًا على تأسيس المدينة !!

ومن العجب الذي يستحق أن ينوه به أن نجم الدين عمر بن محمد النسفي المتوفى سنة ٥٣٧هـ ألف كتابًا سماه «القند في ذكر علماء سمرقند» ذكر

فيه بضعة آلاف من تراجم علماء سمرقند !! فسبحان الله كم أخرجت المنطقة من علماء.

أما طشقند فقد كانت تسمى بلاد الشاش قديمًا، وأخرجت علماء كثيرين على رأسهم القفال الشاشي الإمام الشافعي المشهور المدفون في طشقند وقبره فيها معروف اليوم ظاهر يزار.

وهي اليوم عاصمة أوزبكستان، وقد كانت سمرقند هي عاصمة التركستان لكن الروس نقلوا العاصمة إلى طشقند لأن أهل سمرقند رفضوا تغيير الطابع الإسلامي لمدينتهم لما احتلها الروس، وهناك سبب آخر ألا وهو أن سكان طشقند يكثر فيهم الروس.

وطشقند فيها اليوم أكبر مجمع صناعي في آسيا الوسطى، وعدد سكانها يربو على المليونين ونصف المليون بحسب إحصاء سنة ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

وقد استقلت أوزبكستان عن الاتحاد السوفيتي الهالك بعد عقود من الظلام، وقد كانت قبل تحت الاحتلال الروسي القيصري، الذي أخذ البلاد واستعبد العباد باسم المسيحية المحرفة، ولقد جاء في المجلة الرسمية لإدارة مسلمي أوزبكستان، وهي الإدارة المشرفة على الشئون الدينية في أوزبكستان، جاء فيها ما يلي على لسان القياصرة:

«نحن إن نصرنا الشعوب المحلية نكون رفعناهم إلى مستوانا وهم يصيرون إخواننا» وهم لا يريدون ذلك، لذلك قالوا ما يلي: «مع إجازة الشعوب المحلية لتمسكهم بدينهم يلزم تنفيذ سياسة الترويس تدريجيًّا، فليبق المسلم المتعلم الروسية على جهله فلا يتكلم بالروسية كيفما كان، وليحس

بالخجل لركاكته، فلا يرتعش أمام وال فقط بل أمام كل موظف» ومعذرة على ركاكة الكلام لكني أنقله كما وجدته.

أما الروس الشيوعيون البلاشفة فانظر ماذا قالت المجلة الأوزبكية الرسمية عن عهدهم البائد:

«إن النظام الشيوعي السوفييتي نفذ سياسة استئصال الدين؛ لأن الفكرة الشيوعية كانت مؤسسة على الكفر، والشيوعيون كانوا يرون السعادة في التجرد من كل الأديان، وعلى هذا بعد ظفرهم بالسلطة وتوطيد موقعهم قليلاً في مدة قصيرة عطلوا المساجد والمدارس، وعاقبوا واضطهدوا العلماء. انتهب واجتيح تراث علمي ثقافي غني مصون في المساجد والمدارس والمكاتب وأيدي الناس عبر القرون، وأُعلن الشعب -المنجب أساتذة في جميع مجالات العلوم- أميًّا.

وفي الواقع سنة ١٩١١م في طشقند ... كانت ثلاثمائة وتسعة وأربعون مسجدًا مع ست وعشرون مدرسة، وفيما بعد هدم تلك المساجد والمدارس حتى أبنيتها، وصُيرت المحفوظة منها إلى مخازن وحظيرة خنازير ومتاحف الملحدين وبيوت دعاياتهم».

وقالت المجلة أيضًا: «النظام الذي عشنا فيه بالأمس ألحق بإلحاده المصائب الخطيرة بالمجتمع البشري. وإنّ تأسس عقيدته على الإلحاد نفسه يظهر درجة خطره الوخيم على حياة بني آدم، وبعبارة أخرى إن النوايا الشيوعية المنكرة للأشياء غير المرئية كانت مؤسسة على عدم الاعتراف بالله تعالى وحاولت إزالة إيمان الإنسانية بالخالق عز وجل».

هذا بعض ما قالته المجلة التي صدرت في الذكرى العاشرة لاستقلال الجمهورية سنة ٢٠٠١م، وكانت أوزبكستان قد استقلت سنة ١٩٩١م وانعتقت من نير الشيوعية للأبد بفضل الله تعالى.

وإن جرائم الروس القياصرة ومن بعدهم السوفييت في آسيا الوسطى عامة وفي أوزبكستان خاصة لا تعد ولا تحصى، وإن التاريخ لن ينسى أبدًا أن الروس قد جَهّلوا شعوب المنطقة، وأبعدوها عن دينها وإسلامها عقودًا طويلة، وقتلوا كثيرًا منهم، وهجروا كثيرًا منهم عن ديارهم، وفرقوا شمل الأسر، واختطفوا الأب من بين أهله، والولد من بين أبيه وأمه، ونهبوا ثروات المنطقة، وفعلوا بها كل قبيح، وإنه لابد سيأتي يوم يحاكِم فيه شعوب المنطقة هؤلاء المعتدين في محاكمة عادلة، وعندئذ يخسر المبطلون، وإن غدًا لناظره قريب، ولئن سأل سائل: أين العالم كله مما جرى للمسلمين على مدى مائة وثلاثين عامًا تقريبًا؟ والجواب: إن سبب سكوت العالم واضح وذلك لأن المعذبين مسلمون، والمسلون -كما هو معلوم- لا بواكي لهم، ينتقص من يشاء أرضهم وينتهك عرضهم وما من سامع ولا مجيب.

وإن الدليل لحاضر على ما أقوله ماثل بين أعيننا اليوم في تركستان الشرقية وهم أشقاء التركستانيين الغربيين بل هم شعب واحد، احتل الروس غربه والصين شرقه، فتركستان الشرقية اليوم تحت الحكم الصيني البغيض، الذي حول اسمها لتكون سنكيانج - أي الأرض الجديدة - وأعدم قادتها، ونهب ثرواتها، وهم اليوم مضيق عليهم غاية التضييق، وأسأل القراء: متى سمعتم في الأخبار عن تركستان الشرقية؟ ومتى طرقت آذانكم أخبار إخوانكم هنالك؟

إن الأخبار عنهم نزرة بل نادرة، وذلك لأنهم مسلمون، ولو كانوا نصارى

أو يهودًا لملئت آذاننا ضجيجًا وصياحًا وعويلاً، هذه هي الحقيقة وهذه هي ديمقراطية الغرب والشرق المزعومة، وهذه حقوق الإنسان المدعاة التي يرفعون لافتتها عالية إذا شاؤوا ويعمون عنها وقتما يريدون، وما هي إلا مصالح ، وإنما تؤخذ الدنيا غلابًا، والله الموفق.

***

٦- أيام في طشقند وسمرقند وبخارى ٦/٦

ركبت القطار من بخارى إلى طشقند في رحلة ليلية بقطار ذي سرر، وقد استغرقت الرحلة إحدى عشرة ساعة تقريبًا، فلما وصلنا طشقند أُخذنا إلى الفندق، ثم بعد استراحة قصيرة ذهبنا إلى السوق، ثم زرنا الإدارة الدينية لمسلمي أوزبكستان وفيها المصحف الإمام العثماني مكتوب على جلد غزال بخط قديم، يخلو من النقط والشكل ويصعب علينا - أهل هذا الزمان- قراءته، وقد حفظوه في بللور حتى لا تبليه الأيدي اللامسة.

ثم ذهبنا نسلم السلام الشرعي على الإمام القفال الشاشي الكبير -وهو فقيه شافعي مشهور- المتوفى سنة ٣٦٦ رحمه الله تعالى، وهو مدفون في ضريح بجوار مبنى الإدارة الدينية، وتحفه قبور عديدة منها قبر مفتي أوزبكستان السابق إيشان بابا خان وابنه المفتي أيضًا ضياء الدين بابا خان، ومن هناك ركبنا الحافلة وذهبنا إلى مدرسة «كوكالداس» أي التوأمين، وهي مدرسة قديمة بنيت منذ أربعة قرون، وهناك جُلنا في فصول المدرسة، وسمعنا من بعض الطلاب قراءة جيدة متقنة للقرآن الكريم، وهذا الإتقان غريب على الأعاجم دال على جودة مدرسهم وحسن تلقيهم، ثم أهديت لنا بعض الكتب المهمة.

وخرجنا من المدرسة إلى جامع كبير مجاور -لأداء صلاة الجمعة- وقد غص

بآلاف الناس في داخله وخارجه، وكانوا قد أفسحوا لنا فيه مكانًا كبيرًا في الصف الأول يتسع لنا - وكنا قرابة عشرين من الباحثين والمنظمين للمؤتمر- ودخلنا المسجد وواعظ يعظ الناس قبل الجمعة، وهذه عادتهم، لأن الخطبة يشترطونها بالعربية، وجمهور الناس الأعظم لا يفهمها، فلذلك يعظ الناس واعظ قبل الصلاة، ووعظه طويل، ثم لما جئنا أكمل وعظه، ثم وعظهم مدير المدرسة التي كنا فيها «كوكالداس»، ثم أذن المؤذن فقام المصلون ليصلوا أربع ركعات على طريقة الحنفية، ثم قام الخطيب فسلم فأذن المؤذن أذانًا آخر، ثم خطب الخطيب - وكان هو مدير المدرسة أيضًا- خطبتين قصيرتين جدًّا لم يكن في الأخرى منهما الأمر بتقوى الله والدعاء وإنما اقتصرت على حمد الله تعالى والصلاة على النبي ﷺ، ثم أقيمت الصلاة، وبعد الصلاة قاموا مباشرة لصلاة أربع ركعات ثم أخذوا في أورادهم ، ثم قرئ القرآن ، ثم دعوا ، وانصرفنا إلى الفندق لتناول طعام الغداء.

ثم لم يدعونا نستريح قليلاً، فقد أخذنا إلى جامعة طشقند الإسلامية التي أنشئت سنة ١٩٩٩م، فجلنا في فصولها وولجنا مكتبتها، ثم جُمعنا بأعضاء هيئة التدريس مع الطلاب والطالبات، والقاعة الكبيرة غاصة بنا، وبدأ الكلام مدير الجامعة مُرحبًا بنا، ثم قام طالبان يرحبان ويصفان طريقة الدراسة في الجامعة، ثم قامت طالبة محجبة - جزاها الله خيرًا- وتكلمت لكنها تلعثمت ونست فجلست، وتحدث الدكتور عبد الإله بن عرفة مندوب الإيسيسكو، وتحدث الدكتور صالح بادحدح القائمة مؤسسته «نما» الخيرية على المؤتمر، ثم تحدث الدكتور مصطفى أوزجان التركي - وقد ذكرته في حلقة سابقة- وأخبر الطلاب أنه من قرية تركية بناها دروسين أوزبكي، وبكى حين قال ذلك، ثم إنه حمد الله تعالى على أننا نتكلم مع الطلاب بالعربية والطلاب يفهمون، وكان

حديثه عاطفيًّا مؤثرًا.

ثم إني طلبت أن أتكلم؛ وذلك لأني رأيت أن كل الأستاذات من أعضاء هيئة التدريس والإدارة غير محجبات سوى واحدة، وأن الكثرة الكاثرة من الطالبات غير محجبات أيضًا، فهالني ذلك ولم أطق الصبر عليه، وذلك لأنهن في جامعة إسلامية فإن لم يتحجبن فمن سيفعل إذًا؟ وهنا تنازعني أمران: هل أتحدث منكرًا عليهن وفي ذلك مشقة على نفوسهن أمام هذا الحشد الكبير من الأساتذة والإداريين والطلاب والباحثين أعضاء المؤتمر؟ أو أسكت مراعاة لسنة التدرج وأن هؤلاء النسوة والفتيات حديثو عهد بالإسلام؟ ودعوت الله أن يرشدني إلى الصواب ثم لم أطق أن يكون هذا المنكر ولا ينكر أحد، وربما لا أعود إليهن، وخفت من الله تعالى أن يؤاخذني أن أسكت فطلبت الإذن بالحديث وأُعطيته، فكان مما قلته إنني سعيد جدًّا لأني في هذه الديار: ديار الإسلام قرونًا متطاولة، وأنني لم يكن يدور بخلدي أبدًا أن آتي إلى هذه البلاد، وهذا من نعمة الله تعالى، ثم بينت لهم أنهم كنز وثروة، ليس لقومهم فحسب بل للعالم الإسلامي كله، وأنهيت كلمتي بنصيحة وجهتها للأستاذات والإداريات والطالبات، وهي أنكن لابد لكن من لبس الحجاب، فكيف لا تلبسونه وأنتن في جامعة إسلامية؟! وقلت لهن: إن الحجاب شرف وعز لكنّ، وأنكن أيتها الأستاذات قدوة فماذا تُعلمن إن لم تُعلمن الحجاب؟ وأنتن أيتها الطالبات لابد لكن من لبس الحجاب عن قناعة وافتخار، ثم بينت لهن أن هذه النصيحة ليست للتعيير لكنها من باب الخوف عليهن وأداء الحق الواجب لهن، فلا تسألوا عن همهمات النسوة وهمساتهن التي صاحبت النصح وتلته.

ثم بانتهاء كلمتي انتهت الجلسة، فلما خرجنا قال لي بعض من أحب: قد

أحرجت مدير الجامعة جدًّا فلم يكن ينبغي لك أن تقول هذا، فبينت له ما ذهبت إليه من سبب ترجيح أني أتحدث ولا أسكت، ولا أدري هل اقتنع أو لا؟ لكنني شعرت بارتياح كبير بعد الحديث والإنكار، وشعرت أني أتيت الأمر الصواب، وقد صوب ما صنعت جماعة ممن كان معي من الباحثين، والله أعلم.

وكثيرًا ما أقع في الحيرة في مثل هذه الأحوال ولا يترجح عندي هل أسكت مداراة وتمهيدًا وتدرجًا بالمدعو أو أنكر تغليبًا لجانب وسائل التربية بالموقف والحدث الآني، لأني ربما لن أشاهد المنكر عليه مرة أخرى، وغالبًا ما أقع في هذه الحيرة في مثل تلك البلاد التي ابتعدت عن إسلامها دهرًا طويلاً، فاللهم أرني الحق حقًّا وارزقني اتباعه، وأرني الباطل باطلاً وارزقني اجتنابه، واللّٰهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم.

ثم بعد خروجنا من الجامعة أخذونا إلى متحف تيمورلنك، وهو السلطان الذي يعظمه أهل أوزبكستان تعظيمًا بالغًا الغاية، ويسمون أبنائهم باسمه، وينشرون آثاره في كل مكان، وهذا منهم عجيب؛ إذ هو محتل لبلادهم، وهو من جنس غير جنسهم فهو مغولي وهم أتراك، ولم أر أحدًا من الناس يحتفل بهازمه إلا هؤلاء ومدعي التنوير في مصر الذين احتفلوا بانقضاء مائتي سنة على الحملة الفرنسية على مصر، وهي الفضيحة التي ليس بعدها فضيحة، فإن الشعوب والأقوام لم تزل تحتفل بالجلاء والاستقلال لا بالذل والهوان والاستخراب، لكن ما الحيلة مع هؤلاء «التنويريين الجدد» الذين فاقت

عمالتهم كل عمالة، وغاصوا في مستنقع الهوان والذل والتبعية لأسيادهم؟!
وعلى كل حال فإن تيمورلنك مسلم والاحتفال به لا غضاضة فيه شرعًا، أما الفرنسيون الصليبيون فالاحتفال بهم خادش للإيمان مفسد لعقيدة الولاء والبراء.

والمتحف بني سنة ١٤١٦هـ/١٩٩٦م على هيئة حديثة بديعة، وهو ذو قبة لم أر مثلها في حياتي على كثرة ما رأيت من قباب في أماكن كثيرة من الدنيا، وقد وضع في المتحف متعلقات تيمورلنك وصور متخيلة له ولأبنائه الكثيرين.

ثم غادرنا المتحف إلى الفندق لنجد المفتي هناك، ودعانا لتناول طعام العشاء، ووزع علينا الهدايا، ورحب بنا أجمل ترحيب فجزاه الله خيرًا.

وفي الصباح الباكر قبل الفجر ذهبنا إلى المطار لنركب الطائرة التي أقلتنا إلى إسطنبول، ووصلنا في الساعة العاشرة صباحًا إلى مطارها، ولقد علمت قبل الذهاب إلى أوزبكستان أن هناك ملتقى للقدس دوليًّا سيعقد في إسطنبول، وأنني سأدرك اليوم الأخير منه، فلما خرجت من المطار قصدته فإذا به ملتقى ضخم حاولت الصحافة التركية العلمانية التخويف منه حتى قالت: إن «حماس» وحزب الله في إسطنبول !! والمؤتمر يضم أصنافًا شتى من الناس، وهيئات وجماعات متنوعة، وبشرني أحد الإخوة الإعلاميين بأن هناك قناة فضائية ستنطلق قريبًا باسم قناة القدس، ولله الحمد.

وليس لي اعتراض على مبدأ إقامة المؤتمرات لكن إن كانت منتجة، وأخشى من هذه المؤتمرات أن تكون مرجوحة، فقد عقد المؤتمر الأول للقدس سنة ١٩٣١-١٣٥١هـ في القدس وحضره جماعة كبيرة من العلماء والساسة

والمفكرين، فتلك ست وسبعون سنة منذ إقامة المؤتمر الأول، ومنذ ذلك المؤتمر عقدت مؤتمرات لأجل القدس يصعب حصرها فماذا قدمت، وما هي آثارها في الواقع؟ نعم إن إقامة مؤتمر للقدس في إسطنبول هو حدث مهم وله مدلولات حسنة عديدة لكنني أتحدث عن المؤتمر من حيث انعقاده ونتائجه، وهذا - للأسف- تكرر في الكثرة الكاثرة من المؤتمرات التي تقام باسم فلسطين، والله أعلم.

هذا وقد لقيت في إسطنبول الأستاذ العراقي التركي أورخان محمد علي، وهو الآن في عشر الثمانين، وله كتب كثيرة ومقالات عديدة، وقد تخصص في التاريخ العثماني على أنه مهندس، وقد أهداني بعض كتبه ومقالاته.

والمؤتمر أقيم قرب مسجد سلطان أيوب، أي المسجد المقام قرب قبر أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، فصليت العصر في المسجد، ثم خرجت منه لأسلم السلام الشرعي على سيدنا خالد بن زيد أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، وكم من الذكريات مرت في خاطري - وأنا هناك- عن الجهاد والبطولة والتضحية والفداء، نعم فقد كان -رضي الله عنه- جنديًّا في أول جيش إسلامي غزا القسطنطينية تحت إمرة يزيد بن أبي سفيان، وقد قال النبي ﷺ: «**أول جيش يغزو القسطنطينية مغفور له**»، وقد طلب من يزيد أن يدفنه إذا مات في أقرب مكان مما يلي العدو، فعن أبي ظبيان قال: «أغزى أبو أيوب فمرض فقال: إذا قُبضت فلتُركب الخيل، ثم سيروا حتى تلقوا العدو فيردوكم، فاحفروا لي وادفنوني ثم سوُّوه، فلتطأ الخيل والرجال عليه حتى لا يُعرف» لكن قبره عُرف - رضي الله عنه - ويزار اليوم.

هذا بعض ما علق في ذاكرتي عن تلك الأيام، وعسى ألا يكون حظي منها التعب والأسقام، وأسأله تعالى أن يثيبني عليها وعلى أخواتها ما هو المأمول من الأجر والمثوبة، في دار النعيم المقيم بجوار أشرف المرسلين ، عليه أفضل الصلوات والتسليم.

****

١- أيـــام فــي قـــازان ١/٩

شددت الرحال إلى قازان في شوال سنة ١٤٢٩هـ ، أكتوبر ٢٠٠٨م، وذلك للمشاركة في مؤتمر: «علماء التتار في تاريخ الحضارة الإسلامية»، حيث ألقيت بحثًا في المدن التتارية التاريخية، ولا أكتمكم القول أني لم أكن أعلم شيئًا عن قازان ولا جمهورية تترستان قبل ذلك، لكني لما عكفت على إعداد البحث تبين لي جهلي الفاضح بتاريخ تلك البلاد، هذا وأزعم أني مهتم بالتاريخ، فما هو حال سائر المسلمين إذن؟ وكان القدوم على قازان هو القدوم الأول لي، وأسأله تعالى ألا يجعله الأخير، وقد رأيت أن قازان - حقًّا - هي عاصمة المسلمين في روسيا كلها، وهي صالحة لهذا بما لها من تاريخ، وما لها من مكانة كبيرة في هذا الزمان بين مسلمي روسيا والقوقاز والتركستان.

وقازان هي عاصمة جمهورية تترستان، وهذه الجمهورية جزء من الاتحاد الروسي، وقد أعلنت استقلالها بعد ما هلك الاتحاد السوفيتي، سنة ١٤١١هـ/١٩٩١م، لكن الروس أقنعوا مسئولي الجمهورية بالبقاء في الاتحاد الروسي سنة ١٩٩٤م، فعادوا ورضوا بالفيدرالية وشيء من الحكم الذاتي، وذلك لعدة أسباب منها أن تترستان لا تطل على بحر، وهي محاطة بسبع وحدات إدارية روسية، واستقلالها صعب في ظل هذه الأحوال، وهي جمهورية غنية فيها النفط والغاز، وكان أهل البلاد يحصلون على ١٠٪ من دخل نفطهم لما كانوا تحت الاتحاد السوفيتي، لكنهم الآن يحصلون على ٥٠٪ تقريبًا،

وناتجهم النفطي السنوي قرابة خمسة وعشرين مليون طن، وفي البلاد ثروات زراعية ومعدنية، وفيها صناعات خفيفة وثقيلة، وفيها ماشية ونحل، وفيها صناعات بتروكيميائية.

ويعبر بجمهورية تتارستان نهر الفولجا، وهو أطول أنهار أوروبا فطوله يبلغ ٣٦٨٨ كيلاً، وينبع من شمال غرب روسيا ويمر بعدة مدن منها قازان، وفولغاغراد - ستالينجراد سابقًا- واستراخان ويصب في شمال بحر قزوين ، بحر الخَزَر قديماً ، ويعرف النهر في المصادر القديمة بنهر إتل.

وسكان جمهورية تترستان أربعة ملايين وثلاثمائة ألف نسمة تقريبًا ٥٣٪ منهم تقريبًا مسلمون، وأربعون بالمائة من الروس، وثلاثة بالمائة تقريبًا من القومية التشوفاسية، وهؤلاء والروس نصارى أرثوذكس.

ويلتقي في تترستان نهرا فولغا وكاما، ويحد هذه الجمهورية جمهورية بشكيريا الإسلامية من الشرق، وسبع جمهوريات ووحدات روسية من الجهات الأخرى، ومساحة تترستان ٦٧٨٣٦كم^{٢} فهي جمهورية صغيرة نسبيًّا تقدر بثلاثة أرباع مساحة الأردن.

ويتكلم أهلها باللغة التتارية والروسية، أما التتارية فثلاثون بالمائة من مفرداتها عربية وفيها كلمات فارسية وتركية كثيرة جدًّا، وكانت تكتب بالحروف العربية إلى سنة ١٩٢٩م، ثم غيرت الكتابة فصارت بالأحرف اللاتينية حتى سنة ١٩٣٩م ثم كتبت بالسُلافية السيريلية منذ ذلك التاريخ إلى الآن، وقضية تغيير الأحرف العربية هي قضية محزنة، وذلك لأن التتر كتبوا بها

ألف سنة كاملة، فأن تُغَيَّر هذه الأحرف فهذه مأساة لأن الجيل الجديد الناشئ زمان التغيير قطعت صلته تمامًا بتراثه فما صار يفقه منه شيئًا بل صار كأنه مكتوب بلغة أجنبية، وهذه الكارثة تكررت في عدة بلاد إسلامية مثل ماليزيا وأندونيسيا وتركيا والبلقان الإسلامي وكثير من دول إفريقيا.

ولا أعلم أن هنالك أخبث ولا أسوأ من هذا التغيير في الجانب الثقافي وما يتبع ذلك من تجهيل ديني، وفكري، وتاريخي يتمثل في قطع صلة الأجيال بتراثها تمامًا وتحويله إلى ركام لا يكاد يستفيد منه أحد، وفي تترستان اليوم حركة ناشطة لنشر الكتب القديمة التي كتبت بأحرف عربية وطباعتها بالأحرف السُلافية التي يفهمها السكان، وهذا - على كل حال- أجود من إهمالها وتركها في المتاحف لا يفهمها ولا يقرأها إلا النادر من المختصين.

أما العاصمة قازان - والتي بقيت فيها بضعة أيام- فهي إحدى أقدم مدن روسيا، وهي تقع على نهر الفولجا عند نقطة التقاء أوروبا الشرقية بآسيا، وقد احتفل التتار بمضي ألف سنة على إنشائها سنة ٢٠٠٥م، وللاحتفال قصة طريفة، فقد اجتمع مجلس الدوما في قازان سنة ١٨٩٤م وناقشوا قضية الاحتفال بمرور ٥٠٠سنة على إنشاء المدينة، وكان حسابهم الخاطئ هذا مبنيًّا على بداية ذكرها في المصادر الروسية القديمة، وبعد ثمانين سنة من ذلك التاريخ اجتمع علماء ومثقفون ومسئولون محليون وطلبوا من موسكو الاحتفال بمرور ثمانمائة سنة على إنشاء قازان بناء على معلومات عثروا عليها - فيما يبدو- لكن موسكو لم توافق بدعوى أن تاريخ المدينة ليس عليه دلائل

قوية، وفي سنة ١٩٩٧م بحث عدة خبراء من تتارستان ومن جمهوريات روسية ومن الخارج تاريخ المدينة باستفاضة وبفحص آثار تاريخية معمارية، ومخطوطات قديمة، وصُدقت بحوثهم من مصادر مستقلة، وحُلل ذلك كله في مؤتمرات وندوات، وعقد مؤتمر جامع في سنة ١٩٩٩م بحضور مائة وخمسين عالمًا ليقرروا أن الاحتفال بمرور ألف سنة على إنشاء قازان ينبغي أن يكون في السنوات الأولى من العقد الأول لسنة ٢٠٠٠م، وتقرر بعد ذلك أن الاحتفال بمرور ألف سنة سيكون في عام ٢٠٠٥م، وحصل هذا، واحتفل القوم بمدينتهم، وافتتحوا بمناسبة الاحتفال جامع قُل شريف التاريخي الذي سآتي على ذكره في حلقة قادمة إن شاء الله تعالى.

وقازان بها مليون ومائتا ألف نسمة، ٤١٪ منهم أقل من ثلاثين سنة، وبها أكثر من مائة جنسية واثنين وعشرين مجتمعًا ثقافيًا، وبها أكثر من مائة وأربعين مؤسسة ضخمة، وسبعون ألف مؤسسة متوسطة وصغيرة، والمدينة تحوي شبكة طرق وقطارات تعد موصلة للشرق بالغرب، وتعد المدينة - حقًا - جامعة لملامح حضارتي الشرق والغرب، وفيها ٧٥٩ أثرًا تاريخيًا، ١١٣ منها ذو أهمية فيدرالية، و٣٢٩ ذو أهمية لجمهورية تترستان، و٣١٧ ذو أهمية محلية، وبعض تلك الآثار يعود للقرن السادس عشر مثل كرملين قازان الذي صنف سنة ٢٠٠٠م من اليونسكو على أنه تراث عالمي، وقازان وموسكو وسان بطرسبورغ صنفت في الدرجة الأولى عالميًا من حيث الأهمية الثقافية والتراثية.

وصيف جمهورية تترستان معتدل جدًا فدرجات الحرارة بين العشرين

والثلاثين، لكن شتاءها قارس فالثلج يسقط بغزارة ودرجات الحرارة تتدنى لتكون قرابة الثلاثين تحت الصفر أو تزيد، وأرى - والله أعلم - أن المسلمين ينبغي أن يزوروا المنطقة في فصل الصيف، خاصة أهل الخليج، فهي منطقة جميلة ومناخها معتدل في الصيف، وزيارة العرب خاصة لهذه المنطقة فيه تذكير بالأخوة الإسلامية وترسيخ للحجاب بين نساء البلد إذا شاهدن العربيات بحجابهن، وفيه انتعاش اقتصادي لأهل البلد، وهو - إن صحت النية - عبادة يؤجر عليها فاعلها إن شاء الله تعالى، أوليس ذلك بأحسن من الذهاب إلى بلاد الغرب، وإنفاق البلايين فيها كل عام، ويضيّع كثير من المسلمين فيها الصلاة، وتترك نسوة كثيرات الحجاب خجلاً أو عصيانًا - والعياذ بالله- بلى ، فيا ليت قومي يعلمون.

ومن غرائب الأخبار التاريخية التي اتفق حصولها لي في المؤتمر أني قابلت في ردهاته شابًّا أبيض أشقر غزير اللحية بهيَّ الطلعة مهيبها -كهيئة الترك القدامى وهيبتهم- فبادرني بالسلام والكلام، وذكر لي بأنه من جمهورية مردوفيا، فلما رأى جهلي بها حدثني عنها فأخبرني أنها جمهورية تتبع الاتحاد الروسي فيدراليًا، وأن سكانها قرابة تسعمائة ألف، وعاصمتها تدعى سارانسك، وتبعد حوالي ٤٠٠كيل عن قازان، وسكانها قرابة أربعمائة ألف، والمسلمون في الجمهورية عشرة بالمائة أكثرهم تتار وفيهم شيشانيون وداغستانيون وتركستانيون، وفي العاصمة مدرسة للإمام أبي حنيفة -رحمه الله تعالى- والقوم على مذهبه، وفيها أيضًا ثلاثة مساجد ويبنى فيها الآن مسجد رابع، ومحدثي يسكن في قرية تدعى بلازيريا وفيها مسجد، واسم هذا الأخ

عبدالكريم عبدالرشيدوف على عادة أهل تلك البلاد في إضافة أوف إلى الاسم ليصير اسمًا للعائلة، فلما حدثني بما حدثني به خجلت من نفسي والله، إذ لم أسمع بهم قط، ولم أعرف أن لي إخوانًا مسلمين - هم قرابة مائة ألف- في جمهورية لم أسمع باسمها قط، فاللهم غُفْرًا، فإن هذا يحصل لي وأنا مهتم بالتاريخ ومحب له بل عاشق فما هو حال أكثر المسلمين الذين يكادون لا يقرأون؟!

وروسيا أكبر بلد في العالم مساحة، وبها مسلمون كثر أكثرهم قد طُوِيَ ذكرهم، وأُغلق سجلهم، فهل من ناشر لهذا الذكر، فاتحٍ لهذا السجل؟!

❊❊❊❊

٢- أيام في قازان ٢/٩

ذكرت في الحلقة الماضية معالم عامة عن جغرافية تترستان وأحوال سكانها وأوضاعها، وعرجت على قازان فذكرت تاريخ إنشائها وشيئًا من أحوالها، وفي هذه الحلقة سأذكر تاريخ تترستان وعاصمتها قازان، فأقول - والله تعالى الموفق - إن الشعب التتري الذي في روسيا إنما يعيش في جمهورية تترستان وفي خارجها، ويقدر في تترستان بمليونين ومائتي ألف ، وخارجها بخمسة ملايين فهم قرابة ٧ملايين نسمة إذن، وهم قرابة خمسة بالمائة من سكان روسيا الاتحادية، وتنحدر أصول هذا الشعب إلى ثلاثة أقسام: البلغار وهم من شمال البحر الأسود ونزحوا إلى حوض الفولجا - وقيل بأن أصولهم تركية - والترك النازحون إلى المنطقة من آسيا الوسطى، والمغول الذين امتزجوا جميعًا فصاروا شعبًا واحدًا، يسمى التتار.

أما البلغار فقد أسسوا دولة في حوض الفولجا بعد نزوحهم من شمال البحر الأسود وصاروا يعرفون بـ «بلغار الفوجا» تمييزًا لهم عن بلغار شرق أوروبا الذين يسكنون في بلغاريا اليوم، وهذه الدولة كانت إقطاعية غنية واشتهرت بالتجارة، وقد اكتملت سعادة بلغار الفولجا باعتناقهم الإسلام - بعد أن كانوا وثنيين- في أوائل القرن الرابع الهجري أي قبل نيف وألف ومائة عام عن طريق احتكاكهم بالتجار المسلمين الذين كانوا يفدون إلى المنطقة قبل البلغار، ولم يكتف ملكهم ألموش (ALMUCH) بهذا بل أرسل مبعوثًا

خاصًا يسمى عبدالله بن باشتو إلى بغداد برسالة إلى الخليفة المقتدر بالله يطلب منه أن يرسل له بعثة تفقه بلغار الفولجا بالإسلام، وأن يبني للخليفة مسجدًا في بلاده ويذكر اسمه على المنابر في مساجد البلغار، وطلب من الخليفة أن يحميه من أعدائه وهم يهود بحر الخَزَر، وهو البحر الأسود، فاستجاب الخليفة وأرسل بعثة برئاسة ابن فضلان سنة ٣٠٩هـ/٩٢١م إلى مدينة «بلغار» التي كانت عاصمة آنذاك لبلغار الفولجا، وهذه المدينة قد جددت وتبعد الآن ١٤٠كم عن مدينة قازان ، وهناك بقايا من المدينة القديمة الأثرية تبعد عنها اثني عشر كيلاً، وكان المسلمون يسمون سكان هذه المنطقة الصقالبة، وسجل ابن فضلان أحداث رحلته هذه في كتاب، وتكلم في الذين قابلهم من الترك والخَزَر والصقالبة الروس والاسكندنافيين، وفي ١٦ محرم سنة ٣١٠/ ١٦ مايو- أيار سنة ٩٢٢م أصبح الإسلام هو الدين الرسمي للدولة بعد أن كانت وثنية، وصارت لغتهم تكتب بأحرف عربية عوضًا عن الحروف التركية القديمة.

واشتهر في المنطقة علماء بتأثير الإسلام عليها منهم يعقوب بن نعمان الذي عاش في القرن الخامس الهجري/ الثاني عشر الميلادي وألّف كتاب تاريخ البلغار، وبرهان ابن بلغاري الطبيب، وقُل غالي الشاعر في القرن السادس الهجري - الثالث عشر الميلادي، وانتشرت التجارة والصناعة والمدارس والمساجد والفنادق بعد أن كانت الدولة بدائية همجية، كما وصفها ابن فضلان رحمه الله تعالى، بل صارت الدولة الأولى في المنطقة، وداراً للإسلام ينطلق منها.

أما الترك فقد نزحوا إلى المنطقة من آسية الوسطى «التركستان» ولا أعرف شيئًا كثيرًا عن تاريخهم في بلاد التتار لكنهم امتزجوا بالبلغار هنالك، وقيل إن

البلغار أنفسهم ينحدرون من الأتراك، والله أعلم.

وأما المغول فقد هاجموا المنطقة في القرن السادس الهجري/ ١٢٢٣م، بقيادة جنكيز خان، لكن بلغار الفولجا دافعوا عن بلادهم بصلابة وشجاعة وردوا الهجوم، وفي سنة ١٢٢٧م توفي جنكيز خان فتقاسم الإمبراطورية أولاده الثلاثة وحفيده باتوخان الذي هاجم البلغار سنة ١٢٣٦م بجيش عدده ستمائة ألف مقاتل فاكتسح البلاد، ودمر عاصمتها «بلغار»، ووصل إلى أوروبا الشرقية واتخذ من سوراي عاصمة له، وقد زارها ابن بطوطة ووصفها في رحلته، وهؤلاء المغول الذين سيطروا على منطقة بلغار الفولجا عرفوا باسم القبيلة الذهبية، وكان باتوخان يحنو على المسلمين ويعاملهم معاملة حسنة، وقد توفي سنة ١٢٥٥م ثم تعاقب على حكم بلاده ابنه ثم أخوه بركة خان الذي أسلم قبل مدة طويلة من تولي الحكم، وقد استمر حكمه قرابة عشر سنوات أو تزيد من سنة ٦٥٤-٦٦٥هـ/ ١٢٥٦-١٢٦٧م، وفي هذه المدة أسلم معظم أفراد القبيلة الذهبية التي كانت أول قبائل المغول إسلامًا، واختلطوا ببلغار الفولجا وبالأتراك، وسمي مجموع الشعب القاطن تلك البقعة بالتتار.

ثم إنه في أواخر القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر ميلادي ضعفت القبيلة الذهبية، وتمكن تيمورلنك من دخول عاصمتها «سوراي» وانقض الروس على منطقة بلغار الفولجا فدمروا عاصمتها بلغار، فانفصلت عدة مناطق عن حكم هذه القبيلة منها خانية - أي إمارة- القِرم، وخانية قازان، وخانية خوارزم، وخانية سيبريا، وخانية استراخان، أما خانية قازان فقد أسسها أولوغ محمد وهو من القبيلة الذهبية، ودعا سكان بلغار الفولجا للسكنى في قازان واتخذها عاصمة لخانيته، واستطاع أن يهدد الروس مرارًا وأن

يحاصر عاصمتهم موسكو لكن لم يُقَدّر له أن يفتحها، وصارت موسكو تدفع له ولأولاده جزية سنوية ضخمة لمدة طويلة، وقد وقعت حروب عديدة بين الروس وأبناء وأحفاد أولوغ محمد، وكانت الحرب سجالاً، حتى تمكن القيصر إيفان الرابع المعروف باسم إيفان الرهيب من دخول قازان في القرن العاشر الهجري/١٥٥٢م، ولم تفلح محاولات الدولة العثمانية لاسترداد قازان، وبقيت تحت حكم الروس قرونًا إلى يوم الناس هذا، ولما دخل إيفان الرهيب قازان هو وجيشه ارتكبوا مذابح عظيمة ولم يتركوا أحدًا حول مسجد قل شريف - المسجد الجامع في قازان آنذاك- وكان أهل المسجد قاموا يدافعون عن عقيدتهم وشرفهم بالسيوف فقتلوا جميعًا رجالاً ونساءً، وهدمت المساجد، وأجبر سكان المنطقة على النصرانية أو إن مصيرهم هو القتل أو التهجير، لكن سكان المنطقة لم يرضوا بهذا وقاموا بثورات عديدة أفلحت واحدة منها في استرداد قازان سنة ١٧٧٢م أيام كاترين الثانية التي كانت ذات سياسة متسامحة مع المسلمين مما أدى لهدوئهم وإعادة قازان لروسيا.

وتسبب سقوط قازان على يد الروس في سقوط العديد من الإمارات الإسلامية في المنطقة - التي كانت تسمى خانات أو خانيات- وحُول نهر الفولجا إلى نهر روسي بعد أن كان نهرًا إسلاميًا، يقول المؤرخ الروسي فيسوف:

«مع وصول طبقة النبلاء الروس إلى قازان وبناء الأديرة فيها بدأ الاضطهاد الديني يأخذ مجراه في تلك المدينة، وكان إيفان الرابع المتأثر برجال الدين الأرثوذكس هو المحفز لهذا الاضطهاد؛ إذ قام بهدم المساجد ومنع إعادة تعميرها، ومن جهة أخرى انكب المبشرون الروس في قازان على تحويل أكبر عدد ممكن من المسلمين عن الإسلام إلى الأرثوذكسية».

وقد أعفى الروس كل من تنصر من المسلمين من الجندية ومن الضرائب لمدة ثلاث سنوات، لكن محاولاتهم لم تفلح وبقي أكثر المسلمين على إسلامهم، ولله الحمد والمنة.

وقد أُرغم التتار على ترك ممتلكاتهم بعد التضييق عليهم بمراسيم إمبراطورية، وفي عهد الإمبراطورة آنا (١٦٩٣-١٧٤٠م) أحدثت «مؤسسة المنصرين الجدد» سنة ١٧٣١م التي عملت ٣٣ سنة على إرغام المسلمين على التنصر بكل الطرق، وهدم أسقف قازان ٤١٨ مسجدًا من ٥٣٦ مسجدًا كانت قائمة في المنطقة وذلك من سنة ١٧٣٨ إلى سنة ١٧٥٥م حتى جاءت كاترين الثانية (١٧٦٢-١٧٩٦م) فخففت من شدة الحملة كما ذكرت من قبل، وحاولت أن تتقرب إلى التتار فأغلقت «مؤسسة المنصرين الجدد» وسمحت للمسلمين بالسكن في مدنهم وقراهم كافة، وشيدت مسجدين في قازان، ثم صدر مرسوم إمبراطوري منح المسلمين الحق في الحرية الدينية المطلقة وبناء ما يشاؤون من مساجد ومدارس، وعين مفتٍ لروسيا سنة ١٧٨٢م، وفي عام ١٧٨٨م أسست «الجمعية الروحية للمسلمين» ثم سمح بتدريس العربية بجوار التتارية والفارسية في الأقاليم الإسلامية في كل روسيا، وأُدخل الحرف العربي إلى المطابع الروسية بما فيها مطابع قازان، وبين سنتي ١٨٥٣-١٨٥٩م طبع ٣٦٢٧٠٠ نسخة من القرآن الكريم والكتب الدينية.

وفي عام ١٧٧١م افتتحت في قازان مدرستان إسلاميتان،وفي عام١٧٨٠م أسست المدرسة العثمانية، وكان هدف كاترين الثانية من وراء هذا التسامح مع المسلمين هو منع التتار من التحالف مع الأتراك العثمانيين، وأيضًا فتح أسواق آسيا للبضائع الروسية عبر التتار وغيرهم من مسلمي روسيا.

وما إن استهل القرن الرابع عشر الهجري/العشرين إلا وفي قازان نشاط ثقافي وعلمي ضخم، فقد كان بها جامعة إسلامية فيها سبعة آلاف طالب، وظهرت مجموعة كبيرة من الصحف والمجلات مثل يلدز -أي النجمة باللغة التركية- والوقت، وعزت، والنور، والفكر، وسورة، والمكتب، والأورال وكلها تكتب باللغة التترية وبالحرف العربي، قال بنجسين ولومرسييه:

«وهكذا فما إن أقبل عام ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م حتى بلغ المستوى الثقافي لمسلمي روسيا درجة عالية بشكل لافت للنظر، وذلك بفضل الجهود الجبارة التي بذلها المصلحون، وأصبحت مدن قازان وأوفا وأرنبورغ وتروتيسك وبغتشيساري وباكو مراكز ثقافية وفكرية جديرة بأن تكون ندًّا لدمشق وبيروت والقاهرة وإسطنبول».

وبعد هزيمة الروس من اليابانيين سنة ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م تشجع مجموعة من مثقفي التتار وعلمائهم ومفكريهم مع إخوانهم المسلمين الآخرين في روسيا وطالبوا بحقوق سياسية لمسلمي روسيا، ثم عقد مؤتمر سري في سنة ١٣٢٣هـ / أغسطس-آب سنة ١٩٠٥م اشترك فيه قرابة مائة مندوب من التتار، وصدرت عن المؤتمر توصيات للمطالبة بالحقوق الدينية الشخصية والتساوي مع المواطنين الروس الآخرين، وعرض المؤتمرون التعاون مع الأحزاب الليبرالية الروسية.

وفي سنة ١٣٢٤هـ /يناير ١٩٠٦م عقد مؤتمر سري ثانٍ في مدينة سان بطرسبورغ حضره مائة مندوب تتاري وقِرْمي وقفقاسي وقازاقيوتركستاني، ثم عقد في أغسطس/آب من العام نفسه مؤتمر ثالث لكنه علني، وقرر المؤتمرون إنشاء حزب إسلامي سياسي لمسلمي الإمبراطورية القيصرية كافة يطالب بحرية

التدين وحرية التعليم، وعرضوا التعاون مع الأحزاب الليبرالية الروسية لكنها رفضت، وصدق تعالى:

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[البقرة:١٢٠].

وبعد سنتين من ذلك التاريخ أي سنة ١٣٢٦ هـ /١٩٠٨م فقد القادة المسلمون الأمل في الليبرالية الروسية وهاجر كثير منهم إلى تركيا ثم إلى مناطق متعددة من العالم الإسلامي، وقد خُدع كثير من المسلمين بشعارات الماركسيين والاشتراكيين المنادية بإسقاط القيصرية الروسية التي أذاقت المسلمين الويلات، وسبّب هذا تعاطفًا من المسلمين مع الماركسية والاشتراكية التي دغدغت مشاعرهم ووعدتهم بالحريات، وظل الوضع كذلك حتى قامت الثورة البلشفية الشيوعية الملعونة سنة ١٣٣٦هـ /١٩١٧م، وقد أدت الثورة إلى اختلاف قادة المسلمين - الذين اجتمعوا في موسكو بحضور ٩٠٠ مندوب بعد الثورة- إلى فريقين: فريق يرى الاستقلال التام عن روسيا وهم التركستانيون والأذربيجانيون، وفريق يرى البقاء فدراليًا تحت روسيا ويتزعمه التتار، لكن الجميع اتفقوا على إنشاء إدارة مركزية تُعنى بشئون مسلمي روسيا ومجلس شورى مركزي ولجنة تنفيذية إسلامية، وفي ١٣٣٦هـ /يوليو ١٩١٧م عقد في قازان المؤتمر الثقافي لمسلمي روسيا ولم يحضره سوى ممثلي تتار الفولجا والبشكيريين والقرميين، أما ممثلوا التركستان والقوقاز وأذربيجان فلم يحضروا وذلك للفوضى العارمة إبان الثورة وفي أثناء الحرب العالمية الأولى، لكن مؤتمر قازان رسخ مسألة بقاء المسلمين تحت حكم الروس فدراليًا، ثم جرت أحداث كثيرة بعد ذلك تبين من خلالها أن كل وعود الروس

البلاشفة الشيوعيين للمسلمين ذهبت أدراج الرياح، وأعدم الروس في عهد لينين وستالين كثيرًا من زعماء المسلمين عامة والتتار خاصة ممن تعاونوا معهم وخُدعوا بهم، وفعل الشيوعيون بالمسلمين ما لم يفعله القياصرة الروس، وهذا سأذكره في الحلقة القادمة إن شاء الله تعالى.

***

٣- أيام في قازان٣/٩

ذكرت في الحلقة الماضية تاريخ التتار في روسيا حتى ظهور الثورة البلشفية الشيوعية الملعونة سنة ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م، وقد ابتدأت هذه الثورة الملحدة باستمالة الشعوب الروسية ومنها المسلمون الذين وُعدوا وعودًا معسولة مالبثت أن ذهبت أدراج الرياح، فقد وعدوا بالحريات، ونادى فيهم لينين بالتحرر من القهر، وسلمهم مصحف عثمان رضي الله عنه المحفوظ في طشقند اليوم ومنّاهم ووعدهم لكن ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء:٦٤]، وأدت الثورة إلى قمع المسلمين وتهجير كثير منهم، وقتل أكثر قادتهم وزعمائهم حتى الذين انخدعوا بالشيوعيين وتعاملوا معهم، وفعل الروس الشيوعيون بالمسلمين الأفاعيل الهمجية المتوحشة، وكان نصيب التتار من ذلك وافرًا.

وفي سنة ١٣٣٩هـ/ ٢٧ مايو- أيار ١٩٢٠م أُعلنت منطقة تتار الفولجا «جمهوريةَ تترستان الاشتراكية السوفييتية» وعاصمتها قازان، وفعل الشيوعيون بالبلد الأفاعيل، فدمروا المساجد، ونشروا الإلحاد والفساد، واشتُريت الذمم، وصار الرجل يخاف من زوجه وأبيه وابنه وأخيه، ومنع تعليم العربية والإسلام، وعوقب على ذلك بالإعدام، وفي سنة ١٩٣٩م بلغ عدد المساجد التي أغلقت في تترستان ٥٧٤ مسجدًا، وفي سنة ١٩٤١م لم يبق إلا ١٢٠ مسجدًا فقط، وخاف الناس من دخول المساجد فصارت فارغة، وفي سنة

١٩٩٠م كان في قازان مسجد واحد فقط، أما المدارس فحدث عن تخريبها ولا حرج؛ فقد بلغ عدد مدارس منطقة قازان قبيل الثورة الشيوعية الملعونة ٩٦٧ مدرسة، وعدد طلابها ٧٩٤٩٦ طالبًا وذلك سنة ١٩١٣م، لكن بعد الثورة أغلقت جميع المدارس الدينية ولم يبق لها وجود، والكلام فيما فعله الشيوعيون في تترستان يطول لكن حسبي ما أوردته.

وأذن الله - تعالى - بالفرج لمسلمي تترستان يوم أن أوشك الاتحاد السوفيتي الهالك على السقوط فاجتمع مجلس السوفييت التتري في ٢٠ أغسطس/ آب سنة ١٩٩٠م ليعلن سيادة الدولة الإقليمية فيما فُسر بأنه إعلان استقلال، ولم يكن الروس وقتها قادرين على فعل شيء، وفي ديسمبر ١٩٩١م انهار الاتحاد السوفيتي الهالك - ولله الحمد والمنة - وفي ٢١مارس سنة ١٩٩٢م جرى استفتاء في تترستان حول سيادة الدولة على إقليمها فاختار ٦٢,٤٪ من المشاركين في الاستفتاء السيادة، وفي ١٢ ديسمبر سنة ١٩٩٣م رفضت تترستان تنظيم انتخابات برلمانية على أرضها حول معاهدة الدستور والاتحاد مع روسيا التي أصبحت تعرف بـ «الاتحاد الروسي» بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، لكن أكثر قادة التتار رأوا أنه من غير الممكن الاستقلال الكامل عن روسيا لأسباب منها: عدم وجود منفذ بحري، ولأن هناك سبع جمهوريات ووحدات إدارية روسية تحيط بها من كل جانب - كما ذكرت في الحلقة السابقة - فوقعت مع موسكو معاهدة في فبراير سنة ١٩٩٤م تعترف بموجبها تتارستان بأنها جزء من الاتحاد الروسي لكنها جمهورية فيدرالية لها حكم ذاتي، ومنذ ذلك الوقت أقبل التتار على بناء المساجد فبعد أن كان في قازان مسجد واحد صار فيها اليوم عشرات المساجد، وبلغ عدد مساجد تترستان اليوم ١٣٠٠ مسجد ، ولله الحمد والمنة، ورمم التتار مساجدهم القديمة وعلى

رأسها مسجد «قُل شريف» الذي زرته وصليت فيه الجمعة، وسأذكر هذا فيما بعد إن شاء الله تعالى، وهو مسجد قديم أنشىء قبل احتلال إيفان الرابع -الرهيب- لقازان سنة ١٥٥٢م، وقد استغرق ترميمه تسع سنوات تقريبًا من سنة ١٩٩٦- ٢٠٠٥م، ومن أشهر مساجد قازان جامع شهاب الدين المرجاني الذي أسس عام ١٧٧٠م ولم يكن اسمه جامع المرجاني وإنما سمي بذلك لأن أشهر علماء التتار شهاب الدين المرجاني صار إمامًا له سنة ١٨٥٠م فسمي بعد ذلك باسمه، وفي قازان اليوم عشر مدارس إسلامية رسمية مرخص لها لكنها غير معترف بشهادتها سوى المدرسة العثمانية .

ومنها «المدرسة المحمدية» وقد زرتها واجتمعت ببعض طلابها وأساتذتها، وفيها موجه مصري نابه يسمى محمد محمود عبدالله، وهو أستاذ في جامعة قازان الحكومية، ومعهد اللغات الشرقية، وهو موجه في المدرسة المحمدية، ومشرف في المركز الثقافي العربي، وقد احتفلت المدرسة سنة ٢٠٠٧م بمرور ١٢٥ عامًا على إنشائها، وقد أسسها العالم التتري المفتي عالم جان بن محمد جان بارودي في قازان، وقد أغلقت المدرسة بعد الثورة الشيوعية بسنة واحدة سنة ١٩١٨م، وكان عدد من تخرج فيها من الطلاب إلى ذلك الوقت ألف طالب بل يزيدون ، وبعد مصادرة الشيوعيين للمدرسة حولت إلى مدرسة صناعية، ثم أعيد افتتاحها سنة ١٩٩٣م في أكتوبر، في غرفتين مستأجرتين في قصر لينين للثقافة لأن المدرسة لم تكن قد استردت بعد، فقد اكتمل استردادها سنة ١٩٩٧م، وفي سنة ١٩٩٤م استقبلت المدرسة الطالبات في قسم منفصل عن الطلاب بلباسهن الشرعي فكان ذلك بدءًا لظهور الحجاب في قازان ، ولله الحمد والمنة، وأشرفت على المدرسة مؤسسات

عديدة كان آخرها مؤسسة طيبة من سنة ١٩٩٥-١٩٩٧م ثم جمعية الإصلاح الاجتماعي الكويتية من سنة ١٩٩٨-٢٠٠٣م.

والمدرسة المحمدية هي معهد عالٍ وليست مدرسة، فهي تقبل الطلاب بعد الثانوية ويدرسون فيها خمس سنوات، وفيها دراسات مسائية أيضًا ودراسات بالانتساب، وللمدرسة أثر جيد في المجتمع القازاني بل التتري، فمن مهماتها تخريج الأئمة لمساجد ترستان البالغة ألفًا وثلاثمائة مسجد، وكذلك ملء الفراغ في المؤسسات الدينية المختلفة، والاهتمام بالنساء - وكل الطالبات محجبات- والدعوة إلى الله تعالى في وسائل الإعلام والمدن والقرى، والتصدي للأفكار المنحرفة التي تغزو المنطقة، وترسل المدرسة بعض الطلاب للدراسة في بعض الدول العربية ولأداء الحج، وهي اليوم تعاني من مشكلة مالية فقد تخلت عنها الجمعيات الإسلامية التي منعت من العمل في روسيا، واضطرت المدرسة لإنقاص عدد الطلاب المقبولين كل عام فيالله لِلمسلمين.

وقد زرت الجامعة الإسلامية في قازان وقد أنشئت من قرابة عشر سنوات وفيها اليوم أربعمائة طالب، ومديرها أستاذ لطيف لبق يسمى رفيق محمدشن، وقد مَوّل بناءها البنك الإسلامي للتنمية، وتخرج الجامعة الطلاب الذين يعملون في المؤسسات الدينية المختلفة، وقد اجتمعت بالمدير وسألته أسئلة متنوعة وقد بين لي أن في الجامعة كليتين: كلية للعلوم الإسلامية وكلية للإلهيات، وأهداني كتابًا عن قازان باللغة الإنكليزية استفدت منه كثيرًا، وأهداني خمس مجلدات عن بعض أعلام التتار وكانت هدية ثمينة جدًّا، وذلك لأنني لما عكفت على دراسة تاريخ المنطقة لم أجد من المعلومات عنها وعن أعلامها إلا أقل من القليل، وذلك باللغتين العربية والإنجليزية، وهذه

المجلدات الخمس باللغة الروسية لكن سأعمل على ترجمتها إن شاء الله وذلك للاستفادة مما فيها من أخبار أعلام التتار الذين أريد نشر أخبارهم في الحلقات التي أقدمها عن أعلام المسلمين في القنوات الفضائية إن شاء الله تعالى، والجامعة ناشئة وبحاجة إلى منحها منحًا من جامعات الدول العربية والإسلامية ليكمل طلابها مسيرتهم العلمية، وتكمن أهميتها البالغة في أنها جامعة اتحادية لكل روسيا وأنها إسلامية ومعترف بشهادتها فأين أغنياء المسلمين منها؟!

وقد زرت جامعة تترستان الحكومية للعلوم التربوية والإنسانية، وقابلت عميدة كلية اللغات الشرقية وهي رئيسة قسم اللغة الإنجليزية أيضًا!! وكانت تتكلم الإنجليزية بطلاقة وهذا مما أسعدني وأمكنني من الحديث معها مباشرة؛ إذ يقل في التتار من يعرف العربية أو الإنجليزية، وهي امرأة خمسينية شهلة لكنها غير محجبة فنصحتها أن تتحجب فوعدت خيراً، ثم قلت لها كيف يكون ٩٠٪ من البنات في الجامعة من المسلمات وهن غير متحجبات فقالت لي: لأن هذه الجامعة جامعة حضارية!! فقلت لها إن الإسلام هو الحضارة الحقة والحجاب فريضة ، فأُحرجت وتخلصت من النقاش هذا إلى نقاش آخر حول الجامعة وأقسامها، ثم وصفتني بأني رجل جاد جدًّا !! ولا أدري لماذا مع أني كنت أبتسم بين الفينة والأخرى مع المتحدثين معي ممن كانوا في مكتبها، لكن يبدوا أن للباس أثرًا في ذلك، وهذا لأني أحرص على لباسي العربي ولا أغيره في سفري للبلاد الإسلامية مهما رآه الناس هناك غريبًا، وذلك لأنني أظن أنه من المهم أن يرى الناس اللباس العربي الذي ربما لم يره أكثر القازانيين في حياتهم؛ لأنهم لم يخرجوا من بلادهم إلا في النادر وليس عندهم قنوات عربية أو

إسلامية فمن أين لهم أن يروه، وأريد من لباسي هذا أن يلفت نظرهم ليأتوا إلي ويناقشوني ويسألوني فيكون هذا مدخلاً لدعوتهم، والله أعلم.

وقد رأيت في مكتبها أستاذًا تتاريًا يتكلم العربية بطلاقة، وهو من تتار القرم وليس من تتار الفولجا وهم شعب واحد لكن بعضهم سكن تترستان وبعضهم سكن القرم وهي اليوم تابعة لجمهورية أوكرانيا، واسم هذا الأستاذ القرمي سعيد هبة الله كامل، وهو أستاذ في الحضارة الإسلامية ومهتم باللغة العربية وربطها بالقرآن والإسلام، وهو أيضًا عضو في «الإيسيسكو» وهي المنظمة الإسلامية للتربية والثقافية والعلوم ومقرها في الرباط، وقد جود العربية بجولانه في البلاد العربية وحضوره المؤتمرات، وقد بشرني بأن هناك خمسة وعشرين مجلدًا ستظهر قريبًا عن تاريخ المفكرين والعلماء المسلمين في روسيا باللغة الروسية فسررت وذلك لندرة المصادر والمراجع التي تتحدث عن تاريخ الإسلام والمسلمين في روسيا، وقد زرت فصلاً دراسيًّا في هذه الجامعة وتحدثت إلى الطلاب والطالبات فيه.

وفي هذه الجامعة مركز ثقافي عربي يقوم عليه الدكتور اليمني محمد العماري، وهو من المقيمين في قازان منذ عشرين سنة وهو من العاملين الناشطين، وقد استقبلني في مطار قازان ثم دار بي على عدد من المراكز والمساجد والمدارس، وتعب كثيرًا فجزاه الله - تعالى - عني خير الجزاء، ومركزه هذا بأمس الحاجة للدعم فهو ذو أثر مهم في تعليم اللغة العربية والدعوة إلى الله تعالى خاصة أنه يقبل الطلاب المسلمين والكفار، والمركز يرسل الطلاب إلى سوريا في دورات بجامعة تشرين باللاذقية، وفي المركز دراسات مسائية للغة العربية لمدة ثلاث سنوات، وقد تأسس سنة ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

ثم أخذتني هذه العميدة إلى مدير الجامعة الذي تحدث معي عن طريق مترجم وهو الدكتور محمد العماري - الذي ذكرته آنفًا- عن هموم الجامعة وعن وجوب مساعدتها من قبل الجامعات العربية فوعدته أن أسهل له عقد اتفاق مع جامعة الملك سعود في الرياض -إن شاء الله- لترسيخ الدراسات العربية.

هذا وقد ذهبت بي العميدة إلى المركز الفارسي الإيراني الثقافي في الجامعة وأرتني كتبه فحذرتها من الخطر الشيعي، وبينت لها أن للقوم أهدافًا من وراء ذلك وهو زرع نبتة شيعية في المنطقة حتى تسبب القلاقل والفتن فيما بعد، وضربت لها مثلاً بما يجري في العراق واليمن، وبمحاولات الشيعة زرع نبتة شقاق لهم في مصر وفلسطين والمغرب العربي الكبير فأظهرت الاهتمام، والله أعلم بما تنتهي إليه أحوال هذا المركز الخطير، وأرى أننا مقصرون جدًّا في دعم مثل هذه الجامعات، ويستغل تقصيرنا هؤلاء الشيعة ويملأون هذا الفراغ بمراكزهم الثقافية التي لها أهداف وغايات خطيرة.

ثم زرت المفتي عثمان بن عمر إسحاق، وهو مفتي جمهورية تترستان ورئيس الإدارة الدينية لمسلميها، والنائب الأول لرئيس مجلس شورى المفتين في روسيا، وقد أهداني كتبًا عن تاريخ تترستان وعلمائها، وهي هدية ثمينة، وذلك لأن هذه الكتب حديثة النشر جدًّا، ولأنها ستكون عاملاً مهمًّا في سد الثغرة الكبيرة في تاريخ المنطقة، حيث إن هناك قرونًا مغلقة بالغموض ولا أكاد أجد مصدرًا بالعربية أو الإنجليزية يتحدث عنها، صحيح أن هذه الكتب تنشر بالروسية لكن ترجمتها سهلة إن شاء الله تعالى، وفي الإدارة الدينية شباب متحمسون نشطون أحسبهم على خير إن شاء الله تعالى.

***

٤- أيام في قازان ٩/٤

قد قلت في الحلقة الأولى أنني قد قدمت إلى قازان لحضور المؤتمر الدولي العلمي: «علماء التتار في تاريخ الحضارة الإسلامية»، وكانت تلك القدمة هي الأولى لهذا البلد، وقازان هي عاصمة جمهورية تترستان، وقد ذكرت تاريخ تترستان وقازان في الحلقات الثلاث الأولى فلا أعود لذلك هنا، وقد ابتدأ المؤتمر في يوم الخميس ٢٢شوال سنة ١٤٢٩هـ، ٢٣أكتوبر سنة ٢٠٠٨م في الساعة التاسعة وعشر دقائق متأخرًا عشر دقائق فقط عن موعده، وهذا أمر جيد، وكانت القاعة صغيرة وممتلئة بالباحثين والطلبة والطالبات اللواتي كن محجبات، وهذه نعمة من الله تعالى على هذا البلد الذي ابتلي قرونًا طويلة بالاحتلال الروسي والتخريب الشيوعي، وبدأ الحفل بآيات من القرآن الكريم تلاها أحد الطلبة، ثم تكلم سعادة الأستاذ الدكتور محمد حرب زناتي - المنسق العام للمؤتمر - كلمة مرتجلة قصيرة أكد فيها على أن المؤتمر أقيم من أجل توثيق العلاقة مع التتار، ولإعادتهم إلى حظيرة العالم الإسلامي، ثم تكلم وزير التعليم التتريّ بكلمة قرأها من أوراق أمامه تحدث فيها عن عراقة الشعب التتري في الإسلام، وكثرة علمائه، وذكر أن تترستان تقع بين أوروبا وآسيا فهي ملتقى للحضارات، وذكر أنه ينحدر من عائلة إسلامية كبيرة، وأن هناك خطةً لإنشاء جامعة اتحادية روسية إسلامية في تترستان إضافة لما في تترستان من جامعات ومدارس

إسلامية، وذكر أن جمهورية تترستان حريصة على أن تقيم روسيا علاقات جيدة مع العالم الإسلامي، وختم كلمته بأن تمنى للمؤتمر النجاح.

ثم تحدث مفتي تترستان عثمان بن عمر إسحاق فرحب بالحاضرين ثم ذكر معلومات عامة عن تترستان وتحدث بنعمة الله تعالى في إرجاع الحق والإسلام إلى تترستان، وذكر أن هنالك ١٣٠٠ مسجد في تترستان وعشر مدارس إسلامية بعد أن لم يكن فيها قبل خمس وعشرين سنة إلا القليل من المساجد ولم يكن فيها أي مدرسة إسلامية، وتكلم في كل ذلك بالعربية ، ثم تكلم بالتترية موضحًا أهمية بعض علماء تترستان مثل شهاب الدين المرجاني والقرصوي، وشدد على أهمية دراسة تاريخ البلد وعلمائه، وذكّر بإيجاز بتاريخ شهاب الدين المرجاني الذي ألّف بالعربية والتتارية، وكان يعرف اللغات العربية والفارسية والتركية إضافة إلى التتارية، وكان يجمع بين العقل الرصين والإيمان العميق، ثم ذكر أن العلماء هم ورثة الأنبياء وأن الأنبياء لم يورثوا درهمًا ولا دينارًا وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر، ثم ذكر أن هناك داعية اسمها رشيدة ظهرت قبل خمسين سنة أسلم على يدها كثير من الرجال والنساء ، وكتبت بعض الكتب عن الصلاة وغيرها ثم ذكر أنها أمه وأن عمرها ٨٤ سنة وقد حضرت المؤتمر.

ثم تحدث الدكتور سعيد هبة الله كامل وهو تتاري قرمي على اطلاع واسع باللغة العربية وتاريخ الإسلام في تلك الديار - وقد ذكرت لقائي به في الحلقة الماضية - وقد جاء ممثلاً عن الإيسيسكو: المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة

والعلوم، والإيسيسكو إحدى المنظمات المسئولة عن المؤتمر، وهناك من الهيئات المنظمة مؤسسة نماء ومقرها ماليزيا ومديرها سعادة الدكتور صالح بادحدح، وقد تحدث الدكتور سعيد هبة الله كامل حديثًا موجزًا غلب عليه الطابع الرسمي «البروتكولي» في بدايته لكنه ختمه بذكر تاريخ موجز لشعب التتار وطلبه من الخليفة المقتدر بالله سنة ٣٠٩هـ/٩٢١م أن يرسل بعثة لتفقيه وتعليم التتار فأرسل ابن فضلان على رأس بعثة في العام نفسه، ثم ذكر انتشار الإسلام في المنطقة، ثم ذكر هجمات المغول على المنطقة، ومن ثم إسلامهم، وامتزاجهم بشعب المنطقة، ثم ذكّر بسقوط قازان تحت الحكم الروسي وبداية العهد المظلم -كما سماه، وهو حق- ثم بين أن نهضة شاملة جرت في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي وأوائل العشرين، ثم ذكر كيف خدع الشيوعيون وعلى رأسهم لينين المسلمين، ودغدغوا مشاعرهم ثم قلبوا لهم ظهر المجن وعذبوهم وعطلوا مساجدهم أو هدموها، وهجروهم، ثم ذكر أحوال تترستان بعد سقوط الاتحاد السوفييتي الهالك، وأن المسلمين في نهضة شاملة الآن، ثم بين جهود منظمة «الإيسيسكو» في تمتين علاقات مسلمي روسيا مع مسلمي العالم الإسلامي، وجهودها في الحفاظ على تراث المسلمين ودينهم، وختم بأن تمنى للمؤتمر النجاح.

ثم تحدث مدير قناة النيل المصرية الأستاذ الإعلامي المفوه جمال الشاعر - وقد سجلت القناة المؤتمر- تحدث حديثًا عاطفيًّا مؤثرًا وأثنى على شعب التتار، وقدم أبياتًا من قصيدة أحمد شوقي«نهج البردة»، وذكر أن المسلمين عُلموا في المدارس أن التتار شعب مخيف لكنه وجدهم أشداء على الكفار رحماء بينهم ،

وختم بهذا كلمته القصيرة اللطيفة.

ثم تحدث سعادة الدكتور يوسف عبدالغفار رئيس جامعة المملكة في البحرين فذكّر بعالمية الإسلام وخلود الرسالة، وعدالة الإسلام وقيمه النبيلة وتقاليده الراسخة في السلوك والخلق وحفظ حقوق الإنسان، وهذه كلها قيم يتطلع لها عالم الناس اليوم، ثم ذكر أن الأستاذ مراد هوفمان -وهو سفير سابق لألمانيا في المغرب وقد أسلم وله مصنفات مهمة- قال بأن الانتشار العفوي للإسلام هو إحدى سماته على مدار تاريخه لأنه دين الفطرة، الفطرة التي فطرها الله تعالى في الناس، وأكّد الدكتور يوسف على أن الإسلام دين عالمي حفظ للعلم وظيفته وللعلماء مكانتهم، وأول آية فيه كانت ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق:١] وذكر بعد ذلك أن تترستان تجمع بين بعدين مهمين: البعد الإيماني الإسلامي الروحي، والبعد المعرفي العلمي المتمثل في تاريخها العميق، وذكر أن تترستان دخلها الإسلام بسماحة التجار وحسن أخلاقهم، وذكر سفارة المقتدر بالله ورئيسها ابن فضلان، وذكر أن الأحرف المستعملة على مدار ألف سنة كانت هي الأحرف العربية ثم غيرت بعد ذلك - وقد ذكرت كل ذلك مفصلاً في الحلقات السابقة- وذكر أن قازان كانت أول مدينة إسلامية في روسيا تتولى نشر الكتب والصحف في التاريخ الحديث، وذكر بعض الجامعات الإسلامية في قازان، وذكّر بالمظالم التي وقعت على المسلمين وقد بلغت ذروتها في منتصف القرن الثامن عشر، ولم يحصل التتار على حريتهم الدينية إلا بعد سنة ١٩٨٥م وهم الآن يعيشون حرية دينية جيدة، ثم أكد أن حضارة الإسلام قامت بالجمع بين الروح والمادة وأن أي حضارة لا تستقيم إلا بهذا، وهذا هو الذي يصنعه التتار اليوم -كما ذكر سعادة الدكتور- ثم أثنى على مكانة قازان والتقاء الثقافات المتنوعة فيها،

وذكر شهاب الدين المرجاني وأثنى عليه، وكذلك أثنى على عبدالله طوقاي الشاعر العالم، وختم بالتذكير بمسئولية المسلمين في أرجاء الأرض عن ميراث تترستان العلمي والمعرفي العظيم الذي أسهم في رقي الحضارة الإسلامية بل العالمية، ثم شكر القائمين على المؤتمر وتمنى للمؤتمر النجاح والتوفيق.

ثم تحدث الدكتور عبدالرحمن آل محمود -نائب رئيس جامعة «كييف عالم الشرق» بأوكرانيا - في وجوب التعاون بين المسلمين وغيرهم، واستشهد بقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة:٢] وذكر أن الإسلام قد نهى عن التعاون على الإثم والعدوان فهو إذن دين السلام، وذكر تجربته في أوكرانيا في التعاون على فهم الثقافات والحضارات وقد أُسس مركز هنالك باسم «مركز الخليل بن أحمد الفراهيدي للحضارة الإسلامية» والذي سماه كذلك مستشرق أوكراني هو رئيس جامعة كييف وأستاذ كرسي في العلوم الإسلامية في جامعة أوكرانيا، وذكر بأنه قد كان هناك تقصير من قبل المسلمين في الاتصال بمسلمي آسية الوسطى والتتار وغيرهم لكن هذا المؤتمر وأمثاله يسد شيئًا من هذه الثغرة، وذكر بأن في تترستان وحدها خمسة وعشرين ألف مخطوطة عربية!! لم يكشف عنها اللثام بعد، ثم ختم كلمته بالشكر المعتاد في مثل هذه المناسبات.

ثم طُلب مني الحديث فتكلمت عن نقاط عديدة أوجزها بالتالي:

الإقرار بأني لم أكن أعلم شيئًا عن تاريخ قازان وتترستان وهذا دال على تقصيري، هذا وأنا مهتم بالتاريخ فكيف بالآخرين البعيدين عن هذا المجال، ودعوت المجامع العلمية في تترستان وغيرها للاهتمام بتاريخ هذا البلد.

وطلبت من وزير التعليم الموجود في القاعة أن يعمل على تدريس العربية في المدارس لغة ثانية لا لأنها لغة العرب لكن لأنها لغة الإسلام والقرآن.

وطلبت من القائمين على الشئون الحكومية أن يسهلوا قدوم المسلمين عامة وأهل الخليج خاصة للسياحة في هذا البلد فهو آمن وجميل، وهذا يؤدي إلى تعميق الأخوة وانتعاش الاقتصاد، وأهل الخليج ينفقون المليارات في الغرب فأولى بهم أن ينفقوها في بلاد إسلامية مثل تترستان.

وذكّرت بما جرى على المسلمين الذين استثمروا أموالهم في الأزمة الأمريكية الأخيرة فخسروا وكان أولى بهم أن ينفقوها في ديار الإسلام.

وطلبت منهم إنشاء مُتحف شامل لتاريخ تترستان؛ فإن هناك ثغرات في تاريخهم تمتد إلى قرنين أو تزيد لا نكاد نعرف عنها شيئًا، فعسى أن يكون هذا المتحف سادًّا لتلك الثغرات.

ودعوت إلى اتصال المشايخ والمثقفين والمفكرين التترين بنظرائهم في البلاد العربية والإسلامية عن طريق الحج والعمرة، والمنح الدراسية للطلاب التترين، والمشاركة في الندوات والمؤتمرات التي تعقد في البلاد العربية والإسلامية.

وقد اختلفت الأنظار في بعض ما ذكرته من حيث ذكري لبعض ما صنعه الروس في التتار في ثنايا كلمتي، فبعض الباحثين حدثني في استراحة الشاي ناقدًا لما ذكرته عن روسيا بحجة أن القوم لا زالوا تحت حكم الروس وينبغي تجاوز ذكرهم وعدم التركيز على جرائمهم السابقة، وبعض الباحثين أثنى ولم ير حرجًا، والعجيب أن الباحثين الذين لم يروا حرجًا كانوا من أهل البلاد،

والناقدين كانوا من خارجها!! فوعدت الناقدين أنني إذا ألقيت البحث في المؤتمر فسأذكر في المقدمة أن الرّوس قد أعطوا أهل البلاد الكثير من الحريات الدينية -وهذا حق- وأن طرائق تعاملهم مع التتار أفضل بكثير مما مضى، وهذا حل وسط قد يعالج ما وقع في كلمتي، والله أعلم.

***

٥- أيام في قازان٥/٩

ثم رفعت جلسة الافتتاح الأولى الاحتفالية، ودعي الحاضرون لجلسة شاي، ثم ابتدأت جلسات المؤتمر، وألقى د.رافق محمد شين المحاضرة الأساسية: «تتارستان مركز علمي مهم في تاريخ الإسلام» وهو مدير الجامعة الإسلامية الروسية التي تحدثت عن زيارتها في حلقة ماضية.

وقد تحدث عن المؤتمر الذي أقامه الإيسيسكو في موسكو هذا العام ، ولم أدر بإقامة هذا المؤتمر، ولا أعرف عنه شيئًا للأسف، وهذا دال على التقصير في الاتصال بالمثقفين في العالم الإسلامي المهتمين بمثل هذه المؤتمرات.

ثم أكد - جزاه الله خيرًا- أن الإسلام هو كل شيء بالنسبة للتتار وهو روحهم وثقافتهم وخيارهم الذي اختاروه ماضيًا ويختارونه الآن وليس له أي بديل، وهذا كلام رائع من الدكتور الموفق في حديثه هذا، ومهم في هذا المقام، ثم عَرّج على بعض الجوانب التاريخية لتترستان، وطلب من الباحثين من الدول المشاركة في المؤتمر أن تساعد التتريين على ترسيخ الإسلام واللغة العربية، وذكر أن الإسلام اليوم ينتشر بسرعة في حوض الفولجا وسيبقى إلى الأبد وهو الآن شكل للحياة وشكل للوجود، وبين أن الباحث في تاريخ المنطقة يجب أن يُعنى بالمخطوطات الموجودة في الدول العربية وتركيا لأن كثيرًا من تراث التتار دمر في الداخل، ولعل هذا المؤتمر يفتح أبوابًا لمساعدة الإخوة من الدول العربية للتتار، وذكر أنه قد وجد التتريون في إيران مخطوطة «الترياق» في الطب

لأحد علماء التتار، وأهديت للتتار لما زار رئيس جمهورية التتار إيران، ثم ذكر ما صنعه الروس في التتار لما احتلوا بلادهم وأن الإسلام هو الذي حافظ على قومية التتار في ظل عدم وجود حكومة ولا مدارس ولا مساجد ، وأنه لولا هذا الدين العظيم لما استطاع التتار الحفاظ على البقاء والمقاومة، والتاريخ في تلك الحقبة غامض وروسيا لم تكن تعلم ماذا ستفعل بالمسلمين، وبطرس الأول عند الروس مصلح لكنه عند التتار معتدٍ، وهو فتح النوافذ على أوروبا وأغلقها على التتار، وذكر تسامح كاترين الثانية مع التتار والاعتراف بالإسلام دينًا في موسكو، ولم يكن الإسلام ينظر إليه على أنه دين قبل ذلك؛ وكاترين استطاعت أن تدير المسلمين بيد المسلمين أنفسهم، فظهرت المراسيم التي أذنت ببناء بعض المساجد كالمسجد المرجاني، وكان ذلك متنفسًا للمسلمين، والتتار بدأوا يدركون أن وجود الإمبراطورة فرصة عظيمة لهم ففتحوا المدارس العديدة، والمكتبات في المساجد، وكان ذلك حجر الأساس في الحفاظ على الدين الإسلامي والارتقاء بمؤسساته بعد ذلك عن طريق تعليم الأطفال ثم إرسالهم بعد ذلك إلى آسية الوسطى لتلقي التعليم الإسلامي العالي والاطلاع على ما هو موجود في المكتبات هناك مما ليس عندهم، ثم في القرن التاسع عشر أراد التتار الذين كانوا يعيشون في الأرياف آنذاك وليس في المدن التي هجّرهم منها الروس، أرادوا أن يجددوا في وسائل التعليم، وظهر فريق يريد المحافظة على القديم، وفريق آخر يريد التجديد في وسائل التعليم حتى لا يصبح المسلمون فقط أئمة مساجد بل يجب أن يكونوا مهندسين وحقوقيين أيضًا فتوجه فريق من المسلمين إلى المدارس العامة وإلى الجامعة في قازان التي كانت تدرس العلم الحديث بجوار الدين النصراني الأرثوذكسي فخاف الآباء

من إرسال أبنائهم فيفسد دينهم، حتى أنه لم يتخرج في مائة سنة في هذه الجامعة إلا مائة تتري فقط، فظهرت الحاجة إلى بناء مداس جديدة إسلامية فبنيت المدرسة المحمدية التي سدت فراغًا كبيرًا آنذاك، ثم ذكر شهاب الدين المرجاني وأنه فقيه وأنه المؤرخ التتري الأول، وذكر بأن المرجاني بدأ بالإصلاح عن طريق كتابة تاريخ التتار الوطني للحفاظ على قومية التتار وأنهم مسلمون، ثم عرج على ذكر بعض علماء التتار ونتاجهم العلمي والثقافي.

ثم ذكر أنه في القرن الثامن عشر ترجمت معاني القرآن إلى اللغة التترية لأول مرة عن طريق كتابة تفسير القرآن بعد امتناع طويل من قبل العلماء، وهذه قضية معروفة ثارت في المشرق في تركيا ومصر خاصة في أيام الهالك مصطفى كمال، وقد منع كثير من العلماء ترجمة القرآن والسبب الأول هو خوفهم من قراءة الترجمة في الصلاة كما أراد مصطفى كمال، ومن أسباب المنع عدم التفرقة بين ترجمة القرآن نفسه - وهو أمر مستحيل- وبين ترجمة معاني القرآن وهو سائغ وأمر سهل وهو أشبه بترجمة التفسير، ثم استقر المسلمون بعد ذلك على جواز الترجمة وأن المقصود بها هو ترجمة المعاني لا غير.

ثم ذكر أنه قد أقيمت مدرستان إسلاميتان في بطرسبرج وموسكو في القرن التاسع عشر لكن مدرسة بطرسبرج كانت تقليدية ولم يستفد منها المسلمون كما ينبغي، ومدرسة موسكو كانت لأغراض سياسية محضة ترمي إلى فهم وزارة الخارجية الروسية لطرائق التعامل مع المسلمين في روسيا وخارجها.

ثم ختم محاضرته بذكر الزيارة التي زرتها للجامعة الإسلامية التي هو مديرها، والمشروع الذي عرضته على الجامعة بترجمة التراث القازاني عامة وتاريخ رجاله خاصة حتى يستطيع المسلمون التتار وغيرهم الاستفادة من

هؤلاء الرجال العظماء، ودعاني لزيارة الجامعة مرة أخرى حتى نناقش هذا الأمر ونرى كيف يمكن إتمامه، وهذا ما سأقوم به إن شاء الله تعالى.

ثم ابتدأت الجلسة الأولى بعنوان: «تتارستان موطنًا للعلوم الإسلامية» وأدارتها الدكتورة ماجدة مخلوف من مصر، وهي رئيسة قسم اللغات الشرقية وآدابها بكلية الآداب بجامعة عين شمس بمصر.

وبدأ الدكتور أحمد طوران أرسلان الأستاذ التركي بجامعة مرمرة بإلقاء بحثه بعنوان «الكلمات العربية في لغة التتار» وابتدأ الحديث بالقول إن كل لغة تتأثر بلغة أخرى، وضرب مثلاً على ذلك باللغة التركية التي دخلتها كلمات عربية وإنجليزية وفرنسية وفارسية ... إلخ، وذكر أن بعض مفردات اللغة العربية دخلت في التركية والألمانية والإنجليزية والإيطالية، أما اللغة الإنجليزية ففيها ١٢٠ ألف كلمة أجنبية فيها مفردات لاتينية وجرمانية كثيرة جدًا والإنجليز يفخرون بهذا، وبين أنه رب كلمات تنتقل من لغة لأخرى لكن تختلف دلالاتها في اللغة المنتقلة إليها فتعبر عن معنى لم يكن مستعملاً من قبل فلذلك لا يوجد هذا المعنى الجديد في المعاجم القديمة.

وذكر أن اللغات تقوى وتضعف بحسب أحوال أهلها من القوة والضعف في المجالات المختلفة، وأن أسباب انتقال المفردات من لغة لأخرى تختلف من سياسية واجتماعية واقتصادية وغيرها، ثم ضرب أمثلة للكلمات العربية المستخدمة في اللغة القازانية التترية وفي التركية أيضًا، فمن ذلك:

الله أكبر، أول، آخر، إيمان، إسلام، إذن، إقرار، إثبات، السلام عليكم، إنصاف، إيجاد، قبول، آخرة، أمر، أحوال، اعتبار، اختيار، اجتهاد، أسباب،

أمانة، أجل، أكثر، إبليس، أمير، علم، إشارة، إسراف، إفراط، إصلاح، إخلاص، إحسان، أَحْكَم، أولياء، أنبياء، اقتدار، اشتهاء، احتمال، استهزاء، استغفار، الجبر والمقابلة، أمان.

بلى، بلاد، باطن، باب، باقي، بناء، بركة، بلاغة، بلبل، بهتان، بسم الله.

توبة، تشاؤم، توقف، توثيق، توصيف، تمكن، تعريف، تسبيح، توحيد، تابوت، تشريف، تقدير، تكبر، تفسير.

ثبات، ثيب، ثابت، ثناء.

جمعة، جماعة، جماد، جهاز، جواب، جهنم، جنة، جنازة، جمادى الأولى، جمادى الآخرة، جوهر.

حرام، حرمة، حساب، حور عين، حضرة، حضور، حسد، حافظ، حمية، حسرة، حج، حكمة، حقارة، حكيم.

خير، خراب، خاطب، خطبة، خوف، خليفة، خلائق، خزينة، خمر، ختم، خيال، خادم.

دولة، دنيا، درس، دين، دعاء، دليل، دلالة، ديانة، دراهم.

ذم، ذوق، ذكر، ذخيرة، ذو القرنين.

زاهد، زمان، زينة، زنار، زهرة.

سرطان، سنبلة، سبحان الله.

شعر، شافي، شاعر، شوكة، شمايل، شهادة، شهيد، شرع.

صبي، صبر، صندوق، صابون، صناعة، صفر، صوفي، صلوات، صدقة،

صحابة، صريح.

ضرر، ضد، ضايع، ضعيف، ضيافة، ضمير، ضرورة.

طوبى، طمع، طالب، طبيب، طاقة، طعام.

ظلام، ظن، ظفر.

عزة، عود، عنبر، عار.

غفور، غفار، غوث، غدر.

فيل، فضل، فكر، فتنة، فقير، فرض، فرائض، فرعون.

قول، قدرة، قربان، قطار، قيل وقال، قهر، قوة.

كلام، كافر، كفاية، كافٍ.

لحد، لذة، لذيذ.

منافق، مناسب، موافق، مبارك، معراج.

نهاية، نعم، نقم.

وقت، وصية، وكالة، وزن، وفاء.

هداية، هبة، هباء منثورًا، هجاء.

ياقوت، ياسمين، يهود، يهودي، يسير.

وهو بحث لطيف عقبت عليه الدكتورة ماجدة بأنه دليل على اتصال الشعوب التركية بعضها ببعض.

***

٦- أيــــام فــــي قــــازان ٩/٦

ذكرت في الحلقة السابقة وقائع الجلسة الأولى من اليوم الأول للمؤتمر، وأكملها في هذه الحلقة.

ثم تحدث الشيخ سليمان ظريف - وهو تتري ونائب للمفتي في المسائل الشرعية- وبحثه كان في «علماء التتار في الحديث» فذكر المرجاني والقرصوي وغيرهما وما لهم من مؤلفات، ثم عرج على كلام تاريخي لا يختلف كثيرًا عما سبق ذكره، ثم ذكر أنه بعد انهيار الاتحاد السوفييتي نال التتار حريتهم وأرسلوا أبناءهم إلى بعض البلاد الإسلامية ليدرسوا الدين الإسلامي، ثم عرج على ذكر بعض علماء التتار وكتبهم.

وذكر كتاب «الإرشاد» للقرصوي - وهو كتاب مطبوع- وذكر المرجاني وكتابته كتبًا كثيرة في العقيدة والفقه، وذكر بعض العلماء الذين عنوا بعلم الحديث النبوي وأن مخطوطاتهم موجودة اليوم.

وذكر أنه بعد سنة ١٨٥٠م ابتدأت طباعة الكتب الدينية في قازان، وهو تاريخ فاصل مهم في مسيرة النهضة العلمية الدينية التترية، وقد كانت العلوم الدينية تدرس شفاهًا أو من أوراق قليلة، وذكر أن هناك كتبًا كثيرة دمرها الروس في مدة سيطرتهم على بلاد التتار.

ثم تحدث الشيخ ولي الله يعقوب بوف - وهو نائب المفتي لشئون الاتصال بالجهات الحكومية- وبحثه كان عن «علماء التتر في التاريخ والتراجم»

ومما ذكره أن تاريخ تتارستان مرتبط بدخول الإسلام إلى حوض الفولجا وتحول التتار للإسلام، وأن المغول دمروا التراث التتري، وذكر أن يعقوب بن نعمان - وقد ذكرته من قبل- كتب كتبًا كثيرة عن تاريخ التتر، وهو أهم عالم ومؤرخ في تلك المدة الوسطى، وذكر أن شهاب الدين المرجاني هو أبرز عالم ومؤرخ تتري بل يعد المؤرخ الأول عند التتار، وله كتب كثيرة لم ينشر أكثرها، وقد كتب بالعربية وبغيرها، وكان إذا ذهب للحج يأخذ بعض النسخ من كتبه العربية ويقدمها هدية للعلماء هناك.

ثم ذكر الباحث عدة مؤلفين وكتبًا لهم موجود كثير منها في أرشيف الإدارة الدينية ولم يطبع بعد، وكان السبب الأساس في هذا هو الرقابة الروسية - السابقة- الصارمة على الكتب الدينية والتاريخية، ثم ذكر أن هناك تعاونًا بين علماء التتر والروس في نشر تراث شهاب الدين المرجاني، الذي من المهم جدًّا أن يبرز إلى الوجود لأنه يحكي التاريخ التتري حقًّا، ويجب تنقية التراث الذي نشر بأخطاء كثيرة في زمان القيصرية والشيوعية من هذه الأخطاء.

ثم ألقى الدكتور يسري إبراهيم بحث الدكتور ضياء الكعبي الدكتورة بجامعة البحرين التي لم تتمكن من الحضور، وكان بحثها: «التتر في الأدب العربي: قراءة في المتخيل الثقافي» وذكرت الدكتورة أن صورة التتر في الأدب العربي كانت مشوهة تمامًا وأنهم همجيون ووحشيون، وأقول: إن هذا صحيح قبل إسلامهم فقد كانوا همجيين ووحشيين، ثم ذكرت أمثلة على ذلك في الشعر العربي، ثم ذكرت بعض تفاصيل رحلة ابن فضلان إلى بلاد البلغار - التتار- وقد ذكرتها من قبل في إحدى هذه الحلقات، وفي بحثها عدة أخطاء منهجية وتاريخية وخلط بين الأدب والتاريخ على نحو غير مقبول، وذكرت علاقة ما

بين الظاهر بيبرس وبغداد ولا أعلم أي علاقة بينهما قبل عين جالوت، وذكرت أن الانحطاط بلغ أوجه في مدة دخول التتار إلى بغداد وهذا خطأ فإن قرن دخول التتار والقرن الذي قبله والقرن الذي بعده كان أزهى عصور الإسلام الثقافية والحضارية وبرز فيها علماء عظام كثيرون جدًّا، وقد ذكرت هذا كله في تعليقي على البحث في وقت المناقشة لهذه الأبحاث.

وعلق د.محمد علي البار على بعض قضايا وردت في البحوث، وقام الدكتور عبدالله الغامدي من السعودية بالتعليق على بحث د.ضياء الكعبي وصحح بعض الخلط الذي وقع في بحثها.

وقد سألت الدكتور أحمد طوران أرسلان - الذي ذكرت بحثه في الحلقة السابقة وكان في الكلمات العربية في لغة التتار والأتراك- عن بقاء هذه الألفاظ التي ذكرها في اللغة التركية بعد أن قام مصطفى كمال بحذف أكثر المصطلحات والمفردات العربية من اللغة التركية وهل بقيت هذه الكلمات في اللغة القازانية الحديثة، فأجاب إجابة حذرة لبقة يفهمها من اطلع على عمل مصطفى كمال الهالك، وهكذا انتهت هذه الجلسة الأولى.

ثم بعد ذلك زرت دار المخطوطات التترية، وهي في جامعة ترستان التي ذكرتها من قبل، وقد زرتها مع سعادة الدكتور الفاضل البحّاثة محمد علي البار، وسعادة الدكتور صالح بادحدح، وسعادة الدكتور محمد العماري - مدير المركز الثقافي العربي الذي ذكرته في حلقة سابقة- الذي استخرج لنا ترخيصًا لدخول دار المخطوطات، وترجم لنا وللقائمين على الدار الذين كانوا كلهم من النسوة، وبعضهن قد درسن عنده في المركز الثقافي العربي فلما رأينه هرعن إليه مرحبات متهللات، وقمن بخدمتنا وبعرض كثير من المخطوطات علينا،

وجئن بفهارس المخطوطات العربية فظللت أبحث في الفهرست عما أرغب في مطالعته لكن بطاقات الفهرسة لم تكن منضبطة الانضباط العلمي المعروف فبعضها كان مكتوبًا بالروسية !! وبعضها الآخر لم تكن بياناتها واضحة أو كافية، لكن هو جهد المقل على أي حال، وأخبرنا النسوة أن في دار المخطوطات قرابة اثنتي عشرة ألف مخطوطة أكثر من نصفها بالعربية، وأن كثيرًا منها لم يصنف بعد ولم يقسم، ولعله إذا اكتمل التصنيف والتقسيم تظهر بعض المخطوطات التي هي مفقودة اليوم لا يُدرى أين هي، وكثير من أسماء المخطوطات التي طالعتها تتعلق بالتصوف وعلم الكلام والمنطق، ومن المعلوم أن للعجم تعلقًا كبيرًا بهذه العلوم وشغفًا في التصنيف فيها.

وأطلعنا النسوة على مصحف قديم صغير جدًّا لا يتجاوز الأنملة في طوله وعرضه، وموضوع داخل صندوق صغير جدًّا على ظهره مكبر صغير لتمكين من أراد القراءة فيه أن يقرأ فبدونه لا يمكن القراءة، ولا أدري سببًا لكتابة مثل هذه المصاحف الصغيرة إلا التفنن، وربما كان هناك سبب وجيه - استنبطته ولم يُذكر لي- وهو أنه في زمن الشيوعيين كان من يوجد معه مصحف يعاقب بالإعدام فلربما أراد كاتبوا المصحف أن يصغروا حجمه إلى الدرجة التي يسهل معها إخفاؤه عن أعين أولئك الوحشيين الهمج.

وأرتنا النسوة مصاحف قديمة أخرى، وبعض المخطوطات العربية الأخرى، ولو أن وقتي كان متسعًا أكثر لزرت الدار مرة بعد مرة لفحص مخطوطاتها والوقوف على أسمائها ومضمونها لكن لم يُقدر لي غير تلك الزيارة، والله الموفق.

***

٧- أيام في قازان ٩/٧

ابتدأت الجلسة الثانية في اليوم الثاني - يوم الجمعة- بعنوان: الثقافات التتارية والعربية، وكان رئيس الجلسة سعادة الدكتور جمال حجر، عميد كلية الآداب بجامعة الإسكندرية سابقًا، وقدم للجلسة بكلام -حسن أكد فيه على أن التتار شعب مسلم وهو جزء من الأمة الإسلامية، وابتدأ الحديث الأستاذ مارسيل أحمد زانوف، وهو باحث تتارستاني، وتحدث عن المخطوطات التتارية فذكر أن المخطوطات الأولى القديمة كتبت باللغة العربية، ومن المتأخرين كان شهاب الدين المرجاني الذي كتب باللغة العربية، وكان للصوفية مخطوطات مهمة باللغتين العربية والتترية، وذكر أن بعض المخطوطات نقلت إلى مدينة لينينجراد - بطرسبرج حاليًا- وتوجد مخطوطات باللغة الفارسية والتركية، وأن هناك مخطوطات للشعر العربي والتتري والفارسي والأوزبكي، وذكر أن بعض المخطوطات ضاعت ودمرت، وبعضها الآخر عثروا عليها ضمن عمليات البحث الأثري، وبعضها اشتريت من الناس.

وذكر أن هناك مخطوطات عثر عليها كتبت في القرن السابع عشر ونجت هذه المخطوطات رغم أنف النصارى الذين كانوا يحظرون تمامًا أي تأليف إسلامي، لكني أظن أن أكثر هذه المخطوطات لم تصنف بعد، ولعلها إن صنفت ونشرت فهارسها تكون عونًا على العثور على ما يعد مفقودًا اليوم من تراث المسلمين، وهو -كما يعلم الباحثون- مئات الآلاف من الكتب

والرسائل.

والبحث الثاني كان بعنوان: «التتار في الثقافتين العربية والإسلامية»، للدكتور أحمد كاظم أوزون الأستاذ بجامعة سلجوق في تركيا، فذكر أن الأتراك -خاصة أتراك الشمال- كانوا يُطلق عليهم التتار ، وعلى ذلك فلهم تراث مشترك مع التتار في كل مكان، وذكر أن الأتراك الموجودين في تركيا - اليوم- خرجوا من آسيا الوسطى واستقروا في الأناضول، فأصلهم من آسيا الوسطى، فلذلك صارت تلك المنطقة وثقافتها وآدابها هي القاسم المشترك لكل الشعوب التركية، ثم توسع في ذكر بعض الآداب واللغات واللهجات التركية، وذكر في هذا أن اللغة التركية لها لهجات هي لهجة أتراك التتار: القرم والقازان، ولهجة أتراك الغرب وهم العثمانيون ثم الأتراك اليوم، ولهجة أتراك التركستان: أوزبكستان وغيرها، ولهجة أتراك أذربيجان.

وذكر أن البريد العثماني كان يتولاه التتار لقوة أجسادهم ولمهارتهم في سياسة الخيل وركوبها، حتى أن كلمة التتار انطبعت في أذهان الأتراك على أن المقصود بها هم سعاة البريد، وذكر أن للتتار أثرًا في الرياضة والأدب والثقافة والفنون في تركيا، وذكر أنه منذ سنة ١٧٧٢م نزح قرابة مليون تتري إلى تركيا، وخاصة قونيا.

وذكر أيضًا أن الهجرة العظمى للتتار كانت هجرة تتار القرم خاصة أثناء الحرب العالمية الثانية.

وذكر أنه في حرب البلقان سنة ١٩١٢ م لم تجند الدولة العثمانية التتار لكنهم هم تقدموا بطلب التطوع، وذلك في قرابة سبع سنوات من زمن الحرب.

وذكر أن التتار هاجروا إلى مكة المكرمة ودمشق والقاهرة وحلب، وامتزجوا مع أهل البلاد التي نزلوا بها، وأقول: إن أسرة القرمي عندنا في الحجاز هي إحدى تلك الأسر التتارية القرمية التي نزحت.

ثم تحدث د. حميد لَحْمر - الأستاذ في جماعة سيدي محمد بن عبدالله بفاس في المغرب- وكان بحثه عن «تتارستان في تراث علماء الغرب الإسلامي الأقصى القديم: أعلام ومؤلفات، ووصف وتواصل»، فذكر احتفال أهل قازان بمرور ألف سنة على تأسيسها، وهنأ رئيس جمهورية ترستان بنيله جائزة الملك فيصل لخدمة الإسلام، وذكر أنه اجتمع بطالبين تتريين درسا في جامعة محمد بن عبدالله بفاس فعرف التتار وتراثهم باحتكاكه بالطالبين مدة ستة أشهر فقد كان مسئولاً عنهما أثناء دراستهما بالجامعة، ثم اقترح أن تكون قازان عاصمة للثقافة الإسلامية سنة ١٤٣٠هـ/ ٢٠١٠م، وهذا اقتراح مقدم لـــــ «الإيسيسكو» التي تتولى تعيين المدن التي تستحق أن تكون عاصمة للثقافة الإسلامية في كل عام.

وذكر أن خزانة القرويين بفاس تحوي نسخة قديمة من «رحلة ابن فضلان» استفاد منها الباحثون في المغرب، وذكر رحلة أبي حامد الغرناطي المغربي سنة ٥٣٠هـ إلى بلاد التتار، وهو كتاب مهم دقيق، فقد وصف التتار وبلادهم وصفًا جليلاً ، وذكر أبو حامد فيه أن هناك آلافًا من أهل المغرب مقيمون في بلاد التتار، وهم على مذهب مالك، والغرباء على مذهب الشافعي، وأهل البلد على مذهب أبي حنيفة، وقد تزوج أبو حامد عدة نساء في بلاد التتار وترك أولادًا له هناك، وذكر أن ولده حامدًا الذي كان قد بلغ من العمر أكثر من ثلاثين سنة وصحبه معه إلى بلاد التتار، ذكر أنه تزوج بامرأتين من التتار وترك منهما أولادًا، وأنه تركه في

تلك الديار -ديار التتار-.

وهناك القاضي أبو القاسم صاعد المغربي الذي ذكر التتار في كتابه «طبقات الأمم».

ثم تحدثت الدكتورة ماجدة مخلوف رئيسة قسم اللغات الشرقية وآدابها بكلية الآداب، بجامعة عين شمس، وكان بحثها في «المخطوطات التركية الشرقية في مصر» وتريد بالتركية الشرقية لغة أتراك التتار والقرم وأذربيجان والتركستان والقوقاز، لأن الأتراك الغربيين هم أتراك الأناضول، تركيا حاليًا.

فذكرت أن دار الكتب المصرية تأسست سنة ١٨٧٠م بحي السيدة زينب بالقاهرة بأمر من الخديو إسماعيل، وجُمعت فيها المخطوطات من بيوت السلاطين والأمراء وكبراء الدولة المصرية آنذاك، والدار غنية جدًّا بالمخطوطات، ففي مصر مائة ألف وعشرة آلاف مخطوطة باللغة العربية واللغات الشرقية، وهناك مخطوطات باللغة التركية الغربية العثمانية تبلغ خمسة آلاف مخطوطة، وهناك مخطوطات باللغة التركية القديمة الشرقية (التركستانية، الأويجورية الجغتائية، الخاقانية) وهي عشر مخطوطات فقط في دار الكتب المصرية، وقد عرضت على الحاضرين بآلة العرض نماذج من هذه المخطوطات، ومن أهمها نسخة لكتاب «السعادة» كتبت في القرن الثامن الهجري زمن الناصر قلاوون في ١٩٧ ورقة، وكان الناصر من القوتشاك وصاهر الأوزبك وتزوج منهم، والمخطوط بلغة الناصر قلاوون وبالأحرف العربية، وعثر عليها في مكتبة الخديوي سنة ١٨٩٢م، وهي إحدى ثلاث نسخ موجودة لهذا المخطوط في العالم، وعرضت نماذج عديدة أخرى.

وألقى عدد آخر من الباحثين بحوثًا لم أتمكن من سماعها في هذه الجلسة الصباحية لأني أردت أن أزور المدرسة العثمانية، وهي مدرسة أنشئت منذ خمسة عشر عامًا على اسم مدرسة قديمة اندثرت وقد ذكرتها في حلقة سابقة وهي المدرسة الدينية الوحيدة المعترف بشهادتها في روسيا كلها، وتجمع بين التدريس الديني والعلوم الحديثة التي هي متطلبات وزارة التعليم، فصار التعليم الديني أمرًا زائدًا على المنهج فنالت المدرسة بذلك الرخصة العسيرة المنال، وحسب القارئ أن يعلم أن في روسيا مدارس دينية كثيرة ذات مستويات متعددة لم تنل منهن واحدة الاعتراف الرسمي بشهادتها ونالتها هذه المدرسة الصغيرة المنزوية، فذهبت لزيارتها فوجدتها في مكان ناءٍ، فلما تبينت معالمها ودرت في أنحائها إذا بها صغيرة جدًّا، وأخبرني أحد المهتمين بشأنها - وهو الذي دعاني لزيارتها واستقبلني فيها- أن بها قرابة ثمانين طالبًا وطالبة فقط في القسمين الصباحي والمسائي، وأن عدد طلاب الثانوية بها هو عشرة إلى خمسة عشر طالبًا وطالبة فقط، فعجبت وسألت عن السبب فقيل لي إنها فقيرة الموارد لا تعطي المدرسين مرتبات مكافئة لجهودهم وخبرتهم فينفضون عنها ويذهبون إلى مدارس أخرى تجزل لهم العطاء فضعفت بذلك المدرسة، وقَلّ عدد الطلاب، هذا والمدارس الحكومية بالمجان وهذه المدرسة العثمانية تأخذ الأموال من الطلاب ومع ذلك يقبل عليها أولياء الأمور ويرضون بدفع مبالغ رمزية لأنها تدرس المواد الدينية، وأدعو أغنياء المسلمين لبناء مدرسة كبيرة نموذجية ونقل المدرسة العثمانية إليها وإنفاق الأموال على مدرسيها حتى يصير لها المكانة اللائقة بها فهي المدرسة الدينية الوحيدة المأذون بها في كل روسيا!! فيالله كم نحن مقصرون.

وقد شَرُفْتُ بالصلاة - صلاة الجمعة- في مسجد قُل شريف، وهو مسجد جليل، يُعد - بساحاته وملحقاته- أكبر مسجد في روسيا الاتحادية، وقد سمي باسم القائد البطل العالم قُل شريف الذي استشهد - إن شاء الله تعالى- هو ومجموعة من طلابه دفاعًا عن قازان لما دخلها إيفان الرهيب في القرن العاشر الهجري /سنة ١٥٥٢م، وقد أمر القيصر إيفان بهدمه لما احتل قازان، وظل محطمًا طوال المدة القيصرية والشيوعية إلى أن أعيد بناؤه قريبًا على الهيئة القديمة نفسها بمنارات ثمان، وساهم في بنائه المملكة والإمارات، وافتتح سنة ١٤٢٥هـ/٢٤ يوليو ٢٠٠٥م بمناسبة الاحتفال بمرور ١٠٠٠ سنة على إنشاء قازان، ولله الحمد والمنة.

وقد صليت الجمعة في المسجد، ودُعيت لإلقاء كلمة الوفود، فقمت وتحدثت مع المصلين بعد الصلاة، فبينت لهم أننا سعداء بالقدوم عليهم والجلوس إليهم والحديث معهم، وأن ملايين المسلمين يتمنون أن لو كانوا معنا، وأن الحرية الدينية التي تتمتع بها الجمهورية هي السبب - بعد فضل الله تعالى- في قدومنا بعد أن كان ممنوعًا منعًا باتًّا، ووصيتهم بطاعة الله تعالى ورسوله ﷺ وبتعلم الإسلام العظيم وإحسان فهمه، وبالاعتزاز به، ووصيتهم أن يتعلموا العربية لا لأنها لغة العرب لكن لأنها لغة القرآن والإسلام ولا يكتمل فهمهم لهذا الدين العظيم إلا بتعلمها، ثم ختمت كلمتي ، وجاء الناس للسلام علي وعلى المفتي الذي كان في الجامع وعلى إمام الجامع، وفاتني أن أذكر أن الخطبة كانت باللغة التتارية، وكانت طويلة فقد استغرقت أربعين دقيقة، وكان عهدي بالخطب في تركيا وبلاد العجم الأخرى أن يكون هناك درس قبل الصلاة طويل فإذا جاءت الخطبة كانت قصيرة جدًّا لا تتعدى الدقائق

الخمس، والإمام حنفي ولابد - تبعًا لمذهب قومه منذ ألف سنة بل تزيد- لكنه جهر بالاستعاذة!! والبسملة، وقد جهر المأمومون بلفظ آمين، وهذا غريب في الأحناف لكن يبدو أن الاحتلال الروسي والشيوعي الطويلين أثرا في مذهب القوم وما نشأ عليه أسلافهم القدامى.

وقد استغرقت الجمعة وقتًا طويلاً، ثم إن الغداء بعدها قد امتد إلى ما بعد الرابعة، فلم نصل إلى قاعة المؤتمرات إلا قرابة الخامسة، وكان موعد الجلسة الساعة الثالثة!! والحضور قد انتظرونا طويلاً، وهذه زلة كبيرة في تنظيم المؤتمر فاللهم غُفرًا، وسأتحدث عن وقائع هذه الجلسة في الحلقة القادمة إن شاء الله تعالى.

***

٨- أيام في قازان ٩/٨

بدأت الجلسة المسائية في اليوم الثاني للمؤتمر متأخرة بسبب صلاة الجمعة والغداء بعدها كما قدمت سابقًا، فلذلك دُمجت مع الجلسة التي تليها مع فاصل لأداء صلاة المغرب وتناول الشاي.

وقد حضرت الجلسة أثناء إلقاء د.أميرة المداح لبحثها، وهي من السعودية، من مكة المكرمة، جامعة أم القرى وبحثها بعنوان «من تاريخ الإسلام في تتارستان» وقفت فيه عند سنة ١٩١٧م زمن الثورة الشيوعية، وتحدثت بحديث لا يخرج عما ذكرته في الحلقات السابقة من النواحي التاريخية لكن بحثها امتاز بتلخيص تاريخي جيد، لكنها كانت مضطربة، متقطع صوتها، ولا أدري لماذا مع أنها عُرِّفت بأنها رئيسة قسم ثم عميدة، فلربما لديها عذر لم أقف عليه، وأحمد لها اعتزازها بحجابها ونقابها وعباءتها فكانت شامة في المؤتمر في زمن انتشر فيه حجاب الموضة، وهي بلية ابتليت بها كثير من النسوة المسلمات في هذا العصر، وأحمد لها مجيئها مع محرمها وهذا دال على تحريها وانضباطها بأحكام الشرع فجزاها الله - تعالى - خيرًا.

ثم ألقيت بحثي بعنوان: «مدن تتار الفولجا التاريخية» وذكرت فيه تعريفًا لبعض هذه المدن: قازان، سمارا، السُرا، السُوراي، استراخان، بلغار، وبعض هذه المدن خارج حدود تترستان اليوم لكنها مدن تتارية، وبعضها اندثر لكن أنشئ بالقرب منها مدن سميت باسمها.

وذكرت أن المعلومات التاريخية حول هذه المدن هي نزر يسير وقلة قليلة في المصادر العربية والإنجليزية - فيما وقفت عليه، والله أعلم- وأكثرها ورودًا هي قازان لكن تبقى المعلومات عنها قليلة، وقد حملت باحثي التتار خاصة المسئولية عن هذا النقص ودعوتهم لسده.

وذكرت بعض المعلومات الأخرى عن مدن التتار لكنني أوردتها فيما سبق من هذه الحلقات فلا أعيدها هاهنا.

ثم ألقى الدكتور حسن علي عميد كلية الإعلام بجامعة النهضة بمصر بحثه بعنوان: «مشروع للتواصل مع تتارستان» وكان كلامه مرتجلاً تقريبًا، يدعو فيه إلى عناية المسلمين بتترستان، وتحدث بحديث قوي عن وجوب مساعدة المسلمين بعضهم بعضًا في كل الجوانب، وأنحى باللائمة على المسلمين في تقصيرهم في هذا الباب، وذكر أن هناك أربعة تحديات: هي المذهبية المفرقة والتعصب، والتحدي الثاني هو فرض الرأي وعدم قبول وجهات النظر الأخرى، والتحدي الثالث هو افتقادنا لزعامات قوية، والتحدي الرابع هو العلاقة بالنظام الدولي والصراعات العالمية والتوازنات الإقليمية والدولية.

وفي نهاية بحثه أكّد على إعادة الوقف بنوعيه الأهلي والحكومي، والتعاون بين الجامعات على إنجاح بحوث محددة وتقديم المشورة إلى القيادات الإسلامية، ووصى بإنشاء رابطة للعلماء تكون مثل الهيئة الاستشارية لرجال السياسة والاقتصاد، ووصى بإنشاء هيئة للاستثمار في كل بلد تكون عونًا على استثمار الأموال في البلاد الإسلامية.

ثم تحدثت الدكتورة نجوى كمال كيرة، الأستاذة بجامعة المنصورة، وكان

حديثها عن: «التواصل الحضاري بين المجتمعين المصري والتتري في العصر المملوكي» وقد كان بحثها قويًا جيدًا فيه معلومات طريفة لطيفة، جديدة عليّ كل الجدة، وختمت بحثها بفلم وثائقي عملته بنفسها عن آثار التتار المعمارية في مصر فأجادت كل الجودة، وكنت أتمنى أن تنضبط في حجابها حتى تجمع الدين والدنيا، ولعلها تصنع ذلك إن شاء الله، وقد ذكرت في بحثها أن العصر المملوكي كان عصر نهضة، واستقر في مصر في ذلك العصر طوائف عديدة من الناس من أجناس شتى، وكان من أولئك طائفة من التتار الذين استوطنوا مصر، وكان الاستيطان التتري إما جماعيًا بالآلاف والمئات أو فرديًا أو شبه فردي، وبلغت موجات الاستيطان التتري على مدار دولتي المماليك: البحرية والبرجية ثلاثين موجة، وكان منهم الرقيق الذين بلغوا أعلى المنازل منهم الأشرف قايتباي الذي ولد في القفجاق على ضفاف الفولجا في روسيا والذي اشتراه الأشرف برسباي بخمسين دينارًا ثم صار سلطانًا عظيمًا على مصر، وكان من أعدل السلاطين المماليك.

واستوطن التتار - أيضًا- مصر عن طريق التزاوج بين السلاطين وفتيات سيقت من بلاد التتار.

ومن عوامل الاستيطان المجاعات التي حدثت في بلاد التتار، وكذلك كان لاضطهاد المغول للتتار أثر كبير في انتقال بعض التتار إلى مصر، وبلغ عدد من انتقل في مدة من المدد ١٨٠٠٠ نسمة.

وقد كان لاستقطاب سلاطين مصر لبعض التتار ليكونوا عيونًا على المغول أثر في بقاء بعض هؤلاء التتار في مصر.

وكان للتصوف أثر في وفود بعض التتر على مصر، وذلك لأن مصر كانت قبلة للصوفية آنذاك.

ثم بينت أن عددًا من سلاطين المماليك وأمرائهم ترجع أصولهم إلى التتار وذكرت أمثلة منها السلطان بيبرس ونائب السلطنة الأمير سلار.

وقد ذكرت الدكتورة أن المماليك قد استفادوا من بعض أنظمة التتار الإدارية وعملوا بها في مصر، وذكرت أنه قد انتشرت رياضات وألعاب في مصر بسبب وجود هؤلاء التتار فيها.

وكان للتتر بعض الآثار السلبية في مصر مثل التنافس بين الأمراء من أصول تتارية وغيرها، وكان لذلك أثر في المجتمع المصري.

وقد استحدثت عادات وتقاليد في المجتمع المصري بسبب وجود هؤلاء التتار في مصر: كأكل لحوم الخيل، ومشروب التمربغاوي نسبة إلى الأمير تمربغا وكان يصنع من الزبيب، وبعض أنواع من الملابس، وظهر شيء من التزاوج بين المصريين والتتار، وازداد نفوذ بعض النسوة في مجال السياسة خاصة زوجات السلاطين.

وأنشأ التتار مساجد وأربطة وسقايات، وتعلموا العربية مع الاحتفاظ باللغات الأصلية، ودخلت كلمات تترية إلى العامية المصرية.

واشتهر من التتار علماء وشعراء وأدباء، ومعماريون شاركوا في النهضة العمرانية في مصر، لكنها ذكرت أمرًا غريبًا وهي أن بعض سلاطين مصر من التتار كانوا يشربون المشروبات الروحية!! المصنوعة من القِمِز وهو لبن الخيل، فبينت لها في تعليقي على البحث خطأ هذا الأمر واستحالته وأنه مكذوب على

بيبرس، لأنه لو كان حقًّا لذكره مؤرخو المماليك، وقلت لها إني قد قرأت في تاريخ المماليك آلاف الصفحات لمؤرخين كثر ثقات فلم أقرأ لواحد منهم أن سلاطين التتار كانوا يشربون الخمر، خاصة أن الظاهر بيبرس كان زمن سلطان العلماء العز بن عبد السلام ولم يكن العز العظيم ليسكت لو كان هذا حقًّا، فقد كان أعظم علماء المسلمين إنكارًا على السلاطين، عامة، وعلى الظاهر بيبرس خاصة، حتى أنه لما مات العز قال بيبرس: الآن استقر ملكي.

ثم تحدثت الدكتورة فوزية بايراموفا عن الداعية الكبير عبدالرشيد إبراهيم وجهوده في اليابان، وهو تتري قرمي، وهو السياسي الأول للتتار في العصر الحديث، وهو حافظ للقرآن، وعالم بالإسلام، وهذه ميزة لعبد الرشيد إبراهيم أنه جمع بين علمه بالسياسة وعلمه بالشريعة، وقد عمل لأمة الإسلام كلها بغايتين: اجتماع المسلمين، وإقامة دولة للتتار، فاستعمل وسائل الإعلام المتاحة آنذاك في الصحافة والكتب المطبوعة، وقد ولد سنة ١٨٥٧م في تارا بسيبريا، وتارا تبعد عن قازان ثلاثة آلاف كيل، وجاء أجداده من بخارى، وقد درس في الحرمين، ثم رجع إلى تارا ليكون إمامًا هناك، ثم قاضيًا في أوفا، وقد اضطهدته الشرطة الروسية فهاجر إلى تركيا، وكان من المناصرين لحقوق المسلمين في روسيا وشارك في المؤتمرات السرية والعلنية لمسلمي روسيا قبل وبعد قيام الثورة البلشفية، فضيق عليه الروس فذهب إلى تركيا ثم إلى اليابان، ودعا اليابانيين إلى الإسلام، ثم عاد إليهم مرة أخرى ليستقر عندهم ويموت في بلادهم.

وقد سافر قرابة ٤٣ ألف كيل للدعوى إلى الله تعالى في بلاد كثيرة عربية وإسلامية وغربية وشرقية، وقد زار ألمانيا ليشرف على أحوال الأسرى

المسلمين أثناء الحرب العالمية الأولى.

وقد أدخل الإسلام إلى اليابان، واعترف به البرلمان، وأدخل تاريخ التتار إلى مناهج اليابانيين، وأنشأ مسجدًا هناك، وله عدة كتب مطبوعة في تاريخ الإسلام وتواريخ البلدان طبعت مرارًا في تركيا وغيرها، هذا خلاصة ما قالته الباحثة.

وقد تحدثت بحماسة كبيرة جدًّا، وكانت سريعة في إلقاء بحثها وكانت تتكلم بالتتارية فلم يكن المترجم لكل ذلك قادرًا على مسايرتها في سرعتها وحماستها، وفي كلامها تداخل وبعض الأخطاء فلا أدري أمن المترجم هي أم بسبب حماستها، وقد ناقشتها في هذا، وبينت لها أن الأستاذ الداعية الكبير عبد الرشيد إبراهيم لم ينل حظه من العناية والرعاية، وأن له مذكرات رائعة يشرف على إخراجها د.صالح السامرائي لكنها لم تنشر بالعربية إلى الآن، على أنها نشرت بالتركية منذ زمن طويل، وأحمد للدكتورة الفاضلة حجابها المنضبط إلى حد كبير في زمن انتشار حجاب الموضة بين المسلمات، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم تحدث د. سيد محمد سيد عن «دور الدولة العثمانية في حماية رحلات حج المسلمين في بلاد القوقاز في القرن السادس عشر»، ولا أدري ما علاقة القوقاز بالتتار، والبحث - على دقة موضوعه وطرافته- كان بعيدًا عن موضوع المؤتمر.

ثم تحدث سعادة الدكتور محمد علي البار عن الشاعر بوشكين، وشعره يفيض بالمعاني الإسلامية، وذكر الدكتور في بداية حديثه أن الروس أمة عظيمة

وقد برز منهم شعراء وكتاب وأدباء أثنى بعضهم على الإسلام ثناء عاطرًا، وبوشكين هو أعظم شعراء الروس مطلقًا، وشعره قد فاض بالمعاني الإسلامية لكنه لا يجزم بإسلامه.

وقد أُعجب الشاعر الكبير بالقرآن الكريم على أنه لم يطلع إلا على ترجمة غير دقيقة، وله قصيدة الرسول أو النبي، وقد قرأها الدكتور باللغة الإنجليزية فلم يفهمها، لكن الدكتورة مكارم الغمري المختصة بالأدب الروسي شرحت هذه القصيدة شرحًا جيدًا، وذكر الدكتور من معاني القصيدة تصوير بوشكين لنزول الوحي على رسول الله ﷺ والمعراج الشريف، وحادثة شق الصدر، كل ذلك على لسان رسولنا الأعظم ﷺ.

ثم في قصيدة أخرى ذكر مكة المكرمة، وأقسم بالشفع والوتر والليل في اقتباس واضح من القرآن.

ثم في قصيدة أخرى مدح مصر، والعرب، والروضة الشريفة، وفي شعره حب كبير وتقدير عظيم للقرآن وللنبي ﷺ.

ثم ذكر غار ثور، وذكر القرآن بعاطفة جليلة.

ويستلهم سورة الأحزاب فيقول: إيه يا زوجات الرسول الطاهرات إنكن تختلفن عن كل الزوجات حتى طيف الرذيلة يفزعكن ... ونظرة الكفار الماكرة لا تجعلنها تبصر وجوهكن ...

وفي شعر له ذكر سورة عبس وصور ذلك أحسن تصوير.

ثم اقتبس من قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ ثم استلهم قوله تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ وقوله

تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾.

واقتبس من القرآن بوضوح المناظرة بين إبراهيم- عليه الصلاة والسلام - والنمروذ.

وله قصيدة رائعة عن إسطنبول نحا فيها باللائمة على الأتراك الذين ضيعوا الدين والعقيدة لذلك هزموا أمام الروس في الحرب الأخيرة التي كان بوشكن حاضرًا فيها!!.

إلى آخر ما ذكره وكان جليلاً رائعًا، وفي المناقشة بينت للدكتور البار أن أحد التتر أخبرني أن جد بوشكين مسلم وأنه جاء من الحبشة وأن هذا من المعروف عندهم، والله أعلم، فوافق د. البار وذكر أنه قد أورد هذا في بحثه.

وأقول: إن كان الأمر كذلك فينبغي على أدباء المسلمين أن يدرسوا حياة بوشكين دراسة وافية، وأن يحللوا شعره، وأن يظهروا للعالم كله ما فيه من تعلق بالإسلام ونبيه ﷺ وبالقرآن.

***

٩- أيام في قازان ٩/٩

بعد نهاية اليوم الثاني للمؤتمر اجتمع حولي بعض الناس يريدون العمل ببعض ما ذكرته من توصيات في حفل الافتتاح، فجاءني أحد رجال الأعمال، وهو عضو في الغرفة التجارية التتارية، وطلب مني أن أساعد في تأسيس بعض الأوقاف في تتارستان وإقامة بعض المشاريع الاستثمارية التي تعود على أهل المنطقة بالخير، والحديث مع بعض رجال الأعمال في المملكة حول هذا الموضوع، فدللته على ما عرفته من شفاعات لكن هذه معضلة كبيرة، أعني عدم أو ضعف استثمار أغنياء المسلمين في بلاد المسلمين، وما الهزة الاقتصادية العظمى التي يعاني منها العالم اليوم بسبب الأزمة الأمريكية إلا واعظة ومذكرة لأغنياء المسلمين الذين ذهبت مليارات من أموالهم أدراج الرياح، فليرعووا وليعودوا إلى بلادهم الإسلامية الرؤوم، فالاستثمار فيها - بنية مساعدة المسلمين وإنعاش اقتصادهم- عبادة وقربة إلى الله تعالى، وتخلصٌ من الأسر الاقتصادي الغربي، فحتى متى أموال المسلمين تذهب لجيوب أعدائهم أو تُهدر وتضيع، وإنا لله وإنا إليه راجعون، وإن ضعف استثمار المسلمين في البلاد الإسلامية الفقيرة والمحتاجة يؤدي إلى إجبار أهلها على الاستدانة من المصارف الربوية لإتمام بعض المشاريع التجارية والصناعية، أو الوقوع في براثن الغرب الجشع الذي يريد امتصاص خيرات الشعوب وتحطيم قدراتها وتهميش ثرواتها، وهذا التاجر الذي جاءني وعرض علي ما يطلبه عن مساعدة

من المسلمين قد توجعت له ورحمته وذلك لأني أعلم أن استجابة رجال الأعمال في بلدي مع ما يريده ستكون ضعيفة أو لن تكون هناك حركة لتحقيق ما يطلبه، لكن ماذا أصنع وهذا هو الذي قُدر لي أن أقوله وأفعله، والله المستعان.

وجاءني ثانٍ من قبل الإدارة الدينية يريد بناء مسجد في أحد السجون لإرشاد السجناء، وهذا أمر مهم؛ إذ إن إصلاح السجين ليكون عضوًا نافعًا في المجتمع من المهمات، وجاءني ثالث يريد منحة للدراسة في إحدى جامعات المملكة، ومثل هذا الطلب يكثر علي في رحلاتي؛ وذلك لأن كثيرًا جدًّا من الشباب يتمنى أن يدرس في المملكة، وليس لي حيلة في هذا، إلا أن أقول له أرسل أوراقك وسأنظر من يستطيع مساعدتك وقبولك.

وجاءني رابع وخامس وسادس كلهم يريد ويطلب، ولهم في ذلك كل العذر فهم كالغريق الذي وجد خشبة لا تكاد تغني عنه شيئًا فتعلق بها، وهم يتوسمون فيّ خيرًا لمساعدتهم لكن ليس بيدي حيلة في تحقيق أكثر ما يطلبونه، ومن تصدى للناس لابد أن يشاركهم همومهم وأتراحهم ولو بطلاقة الوجه والكلمة الحسنة.

لكن لا بد من القول أني قد حضرت اليومين الأولين من المؤتمر فقط، وفاتني حضور جلسات اليوم الثالث، الذي كان يوم سفري إلى بلادي، ففاتني جملة من البحوث، ربما فاتت المتابعين من القراء الكرام لكن هذه هي عناوينها، وحسبكم من القلادة ما أحاط بالعنق:

«اهتمام الجامعات السعودية بدراسة تترستان»: د.عبدالله الغامدي

الأستاذ بجامعة أم القرى بمكة المكرمة.

«دار الإفتاء والمدارس الدينية في تترستان»: الشيخ رستم زينوروف، إمام وخطيب جامع قُل شريف.

ثم إنه من المقرر أن تعقد حلقة علمية نقاشية بعنوان «إمكانية تدريس الحضارة التترية في مناهج الجامعات العربية والإسلامية، وعن الوجود الترستاني في الإعلام الغربي».

ثم الجلسة الختامية والتوصيات، والله الموفق.

وفي ليلة مغادرتي إلى بلادي وقع في الفندق حادث لم أكن أتوقعه أبدًا فقد نمت في حوالي الساعة الثانية بعد منتصف الليل واستيقظت على طرق شديد جدًا على الباب قرابة الساعة الثالثة، فما التفت إليه في بداية الأمر وظننت أن الطارق ربما يكون من السكارى، لكن لما اشتد الطرق وتعاظم فتحت الباب ووجدت من يقول لي إن الفندق يحترق فانزل سريعًا، وفي مثل هذه الأحوال لا يدري المرء ما الذي يأخذه في نزوله وما الذي يتركه؟ وهل سيحترق متاعه فيبقى بلا متاع، هذا ودرجة الحرارة منخفضة فقد كانت خمس درجات مئوية فقط، فأخذت حاسوبي المحمول وأوراق رحلتي، وجواز السفر، ونزلت في سلم طويل فقد كنت قاطنًا في الطابق الثامن عشر، ولما كنت في بعض تلك الطوابق لذعني البرد فتذكرت أني لم آخذ معطفي فحرت هل أصعد من جديد أو أظل نازلاً، وذلك أني ظننت أنهم سيخرجون النزلاء خارج الفندق، لكن رأيت أن أنزل، فلله الحمد والمنة أبقونا في بهو الفندق الدافئ، ووجدت رجال الإطفاء قد ملأوا المكان، ونصبوا السلالم وصعدوا عليها ليكافحوا النار،

وخرجت من الفندق أريد أن أرى هذه النار لكن مُنعت وطلب مني الدخول إلى بهو الفندق فدخلت ورضيت بالسلامة والدفء، وبقينا ثلاث ساعات في البهو حتى أطفئت النار، وكانت الساعات قد انقضت سراعًا بالحديث النافع مع مجموعة من علماء الترك وباحثيهم، فقد جرى ذكر السلطان سليم الأول الملقب بالقاطع: «ياوُوز» وذلك لصرامته وصلابته وإقدامه على الدماء، فقلت لهم إنه قاطع، ظالم - وهذا هو ما اشتهر به- فقالوا لي: لا تقل هذا فإنه لم يصنع ما صنعه من غزوه مصر والشام إلا بعد تيقنه خطر الرافضة الصفويين وإرادتهم الشر بمصر والشام، وقالوا لي إنه لم يأت إلا بعد تسلمه وثيقة مكتوبة من علماء الشام يدعونه للمجيء وحماية البلاد من هذا الشر الهائل والحقد الدفين، وأن هذه الوثيقة باقية إلى اليوم، وأخبروني أنه كان صاحب دين وقراءة قرآن وتعبد، فندمت على تسرعي فقد كان مما ينبغي أن أصنعه هو التثبت والمراجعة قبل الخوض في سيرته، لكن المصادر العربية التي تحدثت في سيرته كانت بين مادح مفرط وقادح ذام لا يلوي على شيء، ولي في هذا بعض العذر، والله أعلم، لكني سأدرس سيرته بعمق لأخرج برأي بَيِّن عنه ، إن شاء الله تعالى، وهو قد مات ولم يبلغ الخمسين - فيما أذكر- وهو والد السلطان سليمان القانوني أعظم سلاطين بني عثمان - الذي حكم قرابة خمسين عامًا- وإن لم يكن أفضلهم، فأفضلهم -عندي- هو محمد الفاتح، كيف لا وقد مدحه النبي ﷺ في الحديث الذي أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الإمام الذهبي: «لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير ذلك الأمير ولنعم الجيش ذلك الجيش» والله أعلم.

وأخذ بعض الباحثين يحدثني عن بعض الآثار المهمة في تركيا، وجاء غير هؤلاء وأطرفوني بأحاديث السمر وأخبار لطيفة، وكانت هذه مناسبة حسنة

للقاء سائر الباحثين المجتمعين في البهو؛ إذ إني منذ وطئت أرض قازان وأنا في شغل شاغل عنهم، ومتنقل بين بحث أسمعه، وكتابة أصيد بها خواطري وأسجل بها مذكراتي، وبين مدرسة أزورها، أو جامعة مدعو لها، أو امرئٍ من أهل البلاد أقابله، وهكذا ...

ثم إني سألت عن سبب الحريق فقالوا لي إنه بسبب تماسٍ كهربائي في اللوحة المنصوبة على الفندق في منتصف طوابقه فاحترقت الأسلاك وسارت النار في عشرة طوابق لكن في ظاهرها وليس باطنها ولله الحمد، وتذكرت في ذلك الوقت جهنم أعاذنا الله منها، فإن كانت نار الدنيا التي تجد من يطفئها قد أخافت الناس إلى هذا الحد وأحدثت فيهم من الفوضى ما الله به عليم فكيف بنار الآخرة التي لا تجد من يطفئها، وهي قد فضلت على نار الدنيا بتسعة وستين جزءًا كلها مثل حرها كما أخبر النبي ﷺ هذا ولها شهيق وفوران، وتكاد تتقطع من غيظها على أهلها، ولا شافع يومئذ ولا متكلم إلا من أذن له الرحمن وقال صوابًا، فليت شعري كيف النجاة من ذلك اليوم، وكيف العمل، وقد قال تعالى موجبًا على نفسه الشريفة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم:٧١، ٧٢] فاللهم نجنا في ذلك اليوم العظيم، ولا ترينا النار إلا تحلّة القسم، واجعلنا من الفائزين بجناتك جنات النعيم، وارزقنا لذة النظر إلى وجهك الكريم، ولا تخزنا يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

ثم طلب القائمون على الفندق من الناس أن يصعدوا إلى غرف قد هيأوها لهم لكن الكهرباء ستظل مقطوعة، فرأيت وأنا صاعد إلى غرفتي بعد الفجر -

والظلام ما زال مخيمًا- رأيت في المصعد امرأة مسافرة قد غادرت غرفتها، فسألتها ما بك؟ فقالت: لا أستطيع البقاء في الغرفة في الظلام، وسأنزل إلى البهو، وأخبرتني أنها مضطربة جدًّا ومرتبكة بسبب الطرق الشديد الفجائي على الباب، فقد قالت: قد استيقظت فزعة في الظلام لأرى أربعة رجال من هيئة الإطفاء يأمرونني بالنزول على عجل فارتبكت واضطربت، وما زال الارتباك والاضطراب مستولين علي إلى الآن ولا أستطيع البقاء في الظلام الدامس، فتذكرت حكمة الشارع الحكيم في إلزام المرأة بالمحرم في السفر الطويل، فلو كان محرمها معها لما اضطربت هكذا أو لكان قد واساها وأذهب عنها الخوف والاضطراب، هذا وهي امرأة فاضلة جدًّا محجبة عرفتها في مؤتمرات سابقة وهي في أواخر الخمسينات من عمرها، بارك الله فيها ونفع بها.

هذا ولا يسعني في نهاية هذه الحلقات، إلا أن أشكر الله - تعالى - العظيم الذي هيأ لي القدوم إلى هذا البلد الذي حُرم المسلمون قرونًا من زيارته، وعملاً بقول النبي الأعظم صاحب المقام الأفخم: «**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**» وهو حديث صحيح إن شاء الله تعالى، فأشكر لسعادة الدكتور الفاضل صالح بادحدح رفيقي في هذه الرحلة وفي رحلات كثيرة، وهو ممن أزعم أن الله - تعالى - قد نفع به كثيرًا من عباده، وهو ممن أتوسم فيه الإخلاص - أحسبه كذلك والله حسيبه ولا أزكي على الله أحدًا- أشكره لقيامه على المؤتمر وعنايته به.

وأشكر سعادة الدكتور محمد حرب زناتي المنسق العام للمؤتمر وهو ممن بذل جهدًا لإقامته عسى الله – تعالى - أن يثيبه عليه.

وأشكر سعادة الدكتور اليمني الفاضل محمد العماري الذي ساعدني في كثير من الأمور وتعب كثيرًا وهو رئيس المركز الثقافي العربي الذي ذكرته في

بعض الحلقات السابقة.

وأشكر المربي الفاضل والموجه التعليمي سعادة الأستاذ محمد محمود عبدالله المصري الذي كان له الفضل في تبصيري بأمور كثيرة، ودار معي في المدرسة المحمدية كما بينت سابقًا.

وكذلك أشكر سعادة الدكتور الفاضل نور الدين الماحي المغربي الذي نشط في مساعدة الباحثين وتسهيل أمورهم.

ومن أهل تلك البلاد لا أنسى الأخ الفاضل بولاد التتري الذي درس عندنا في الرياض في جامعة الإمام محمد بن سعود قرابة عشر سنوات ، وفي موريتانيا سنة، ولهذا فإنه يجيد العربية، هذا الأخ الفاضل قد بذل جهودًا في مساعدتي أدعو الله أن يثيبه عليها.

وممن ساعد على إنجاح هذا المؤتمر فضيلة المفتي ومن ورائه الإدارة الدينية.

هذا وقد غادرت البلاد وفي حلقي غصة، وفي قلبي حسرة على أنني لم أوف الزيارة حقها؛ فقد كانت بضعة أيام تمنيت أن تطول، وإقامة يسيرة رجوت أنها لا تزول، ففي قازان وتترستان والجمهوريات الإسلامية في روسيا مغاني ومعاهد، وأطلال دوارس وغير دوارس، وذكريات جليلة، وأعمال عظيمة تركها الأسلاف وديعة عند الأخلاف، ودار عليها الزمان دورة لا أجد في التعبير عنها أحسن من قول أبي البقاء الرندي راثيًا الأندلس المفقود:

لكل شيء إذا ما تم نقصانُ ... فلا يُغَرّ بطيب العيش إنسانُ

هي الأمور كما شاهدتُها دُوَلٌ ... من سره عيشٌ ساءته أزمانُ

وهذه الدنيا لا تُبقي على أحد ولا يدوم على حال لها شانُ

والحمد لله أولاً وآخرًا، وصل اللّهم وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، ولا أرى أن أختم هذه الحلقات قبل أن أورد أبيات أبي تمام الطائي:

مرت سنون بالوصال وبالهنا فكأنها من قُصرها أيام

ثم انثنت أيام هجر بعدها فكأنها من طولها أعوام

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام

***

أيـــام فـــي السنغـــال

السنغال دولة إسلامية مركزية مهمة في غرب افريقيا، يحدها من الغرب المحيط الأطلسي، ومن الشمال موريتانيا، ومن الشرق مالي، ومن الجنوب غينيا كوناكري وغينيا بيساو، ونهر السنغال هو حدودها الشمالية والشرقية الطبيعية، وسكانها ٩٥٪ منهم مسلمون و٣٪ نصارى، و٢٪ لادينيون، والعرقيات في السنغال كثيرة منها الوُلوف والفولان (الفلاتة).

وقد استقلت عن فرنسا سنة ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م وصارت عاصمتها دكار، وسكانها حوالي ١٤ مليون ومساحتها ١٩٦ ألف كم٢ تقريبًا، وثروتها - تعتمد بفضل الله تعالى- على الفوسفات والسمك وتراب الحديد.

وقد دخلها الإسلام في القرن السادس الهجري/ الحادي عشر الميلادي على يد قبيلة صنهاجة التي كان مقرها ما يعرف اليوم بموريتانيا، وقيل على يد عبدالله بن ياسين تحديدًا، وهو أحد الأبطال الذين مهدوا الطريق لقيام دولة المرابطين العظيمة في المغرب الأقصى.

وقد جئت تلك البلاد عن طريق المغرب الأقصى، التي وصلتها في الصباح الباكر، ولقد علمت في الطائرة أن هنالك معرضًا دوليًّا للكتاب في الدار البيضاء، ولما كانت الطائرة المقلعة إلى دكار عاصمة السنغال ستقلع بعد المغرب رأيت أن أزور المعرض، فوجدته صغير المساحة إذا قورن بمعرض القاهرة، لكني أستفدت مما فيه من كتب مغربية لا أكاد أجدها في أي مكان

آخر، ومشكلتي في هذه المعارض هي اجتماع الناس عليّ، وطلبهم التصوير معي، وسؤالي عن الصحة والأهل والأولاد، وسؤالهم الدعاء، وعرض بعض المشكلات الخاصة والطلبات ولا تمضي خمس دقائق حتى تعاد الكَرّة من جديد، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ما أصعب الشهرة، وما أفدح ثمنها، وكم تمنيت ألا أُعرف حتى أكون حرًّا أتحرك كما أريد لكن قدر الله وما شاء فعل.

وجددت العهد في الدار البيضاء بثلة من كرام الإخوة وتغديت معهم، ثم ذهبت إلى المطار وأقلعت الطائرة إلى دكار فوصلت نصف الليل، وكان في استقبالي جماعة من الفضلاء منهم الشيخ مالك وهو طالب علم وداعية سنغالي، له حظ من العلم والأدب، وكذلك اثنان من الدعاة المصريين من ذوي الأدب والفضل لم أعرفهما من قبل، وأُخذت إلى الفندق، فأخلدت إلى النوم بعد رحلة طويلة من جدة إلى دكار.

وفي الصباح اجتمع مجموعة من المشايخ والدكاترة الشرعيين والدعاة وطلبة العلم في مسجد من مساجد دكار لأجل دورة شرعية في أصول التفسير وعلوم القرآن، وكان لقاءً جيدًا - بفضل الله تعالى- طوفت بهم على علوم القراءات، والإعجاز بأنواعه، وأنواع التفسير، وذكرت بعض الشبهات وحللتها لهم، ثم ختمت اللقاء بمحاضرة في «رسالة القرآن في الحياة» وأجبت على أسئلتهم المتنوعة، وخُتمت الدورة بإلقاء قصيدة ترحيبية من بحر البسيط، ألقاها أحد طلبة العلم بطريقة فصيحة ومخارج صحيحة، وطلب مني أن أقرأ لهم شيئًا من القرآن العظيم ففعلت.

ثم غادرت المكان إلى بلدة أخرى أقيم فيها حفل عشاء، واجتمعت بمجموعة من الدعاة وطُرحت بعض الآراء والاقتراحات في شئون الدعوة.

وفي صباح ثالث يوم من الزيارة توجهت لبلدة لُوجا لزيارة مركز جماعة عباد الرحمن، وفي المركز مدرسة ابتدائية تحوي قرابة ٤٠٠ طالب وطالبة، يدرسون بالعربية والفرنسية، واستمعت لقراءتهم القرآن وأناشيدهم الإسلامية المؤثرة النافعة، وفي المركز مستوصف رَثّ الحال، قليل دواؤه، لكن يبدو أنه ليس في الإمكان أبدع وأحسن مما كان، وفي المركز مسجد يكاد سقفه يسقط، واجتمع فيه مجموعة تكلمت معهم في شأن العناية بالطلاب وإعدادهم ليكونوا أعمدة في مجتمعهم، وحدثتهم في أهمية إيجاد صلة حسنة بسائر الدول العربية والإسلامية، ولأن الشعوب العربية والإسلامية لا تكاد تعرف عن السنغال شيئًا.

وضربت لهم مثلاً فلسطين التي تغير تاريخها الحديث كله على يد الصبية والغلمان الذين عُني بهم الشيخ أحمد ياسين ومجموعة من حوله حتى استطاعوا - بفضل الله تعالى- أن يغيروا بأولئك الصبية تاريخ فلسطين والمنطقة كلها.

ولقد عَرّجت في يومي ذاك على مدارسَ عدة، وتحدثت مع إدارتها وبعض طلابها لكني وجدتها في حال رثة تحتاج إلى عناية بالغة من كل الوجوه فأين أغنياء المسلمين؟

ولقد حدث شيء أثار حزني وهو أني كنت في فصل من الفصول أختار طلابًا ليقرأوا القرآن، وبعد أن تلا بعض الطلاب وقع بصري على جارية صغيرة فطلبت منها القراءة فتتعتعت قليلاً فأسكتها بعض مرافقي بقوله: هي معوقة، فأخذت البنت في البكاء فحزنت لهذا التصرف من الأخ - هداه الله تعالى- فبعد أن قرأت جارية أخرى طلب أحد مرافقيّ منها أن تقرأ الفاتحة فقرأتها بصعوبة فسُرِّي عني بعض ما وجدته أولاً في نفسي.

وأولئك الطلاب والطالبات الذين رأيتهم هم نبتة حسنة يجب أن تُرعى حتى تستوي على سوقها وتؤتي أحسن الثمار، إن شاء الله تعالى.

وفي اليوم الرابع من الزيارة زرت «معهد الدراسات الإفريقية» ومديره الدكتور خديم امبيكي أحد المثقفين البارزين في السنغال، وهو ممن درس في الجامعة الإسلامية في المدينة النبوية المنورة، ونال الدكتوراه من السربون، وأطلعني على نشاط المركز وما فيه من كتب ومخطوطات، واشتريت كتابه الذي دون فيه ذكرياته بإيجاز.

وبعد ذلك ذهبت ومرافقيّ إلى جزيرة غوري، وهي جزيرة قريبة جدًّا من دكار لا تبعد أكثر من ١٥ دقيقة بالباخرة البطيئة، وهي الجزيرة التي كان البرتغاليون والإسبان والإنجليز وغيرهم يرسلون إليها مَن سرقوهم من الأفارقة من بلدان غرب افريقيا ويصدرونهم بعد ذلك إلى أمريكا وإسبانيا والبرتغال وغيرها من الدول، ولقد سَمّيْتُ تلك الجزيرة جزيرة الأحزان؛ فكل ما فيها يشي بالظلم الهائل الضخم الذي نال الأفارقة، فالجزيرة بها عدد من البيوت التي هي أشبه بأقبية وغيران منها بالبيوت، ودخلت واحدًا منها فوجدته لا يصلح للبهائم، وكان سماسرة العبيد يأتون بمن سرقوهم من بلادهم وأهلهم، وأول ما يصنعونه أن يعزلوا الكبار عن الأطفال، والنساء عن الرجال، والنساء الأبكار عن الثيبات، ويحشرونهم حشرًا في زنازين مصفوفين فيها كالسردين أشباه عراة، أما الصغار فهم عراة تمامًا، وينامون على الأرض فيموت كثير منهم، وأما من لم يبلغ وزنه ستين كيلو جرامًا من كبار الذكور فإنهم يحشرون في زنازين، ويطعمونهم الفول والسمن حتى يسمنوا ليكونوا

مستعدين لأعمال العبودية، ومن تمرد من الشباب الأقوياء حُشر في زنزانة لا يمكن أن يقف فيها، ويبقى مدة حتى يتأدب، ولقد رأيتها فإذا هي شبيهة بالغار، ويمكث فيها السجين مدة شهر ليتأدب، فإذا خرج لا يستطيع الوقوف السوي لمدة بسبب ضيق الزنزانة !!

وإذا أراد أحدهم الهرب فإما أن يُقتل أو يأكله القرش في البحر، فإذا جاء وقت ترحيلهم يحشرون في السفن حشرًا عجيبًا، فإذا اضطربت السفينة في البحر وخُشي عليها من الغرق أخرجوا من لم يرغبوا فيه من العبيد ورموهم في البحر!! وأعداء الله لا يرمونهم هكذا بل يربطونهم مجتمعين بسلاسل ليغرقوا من الثقل ولا يبقى لهم أي أمل في الحياة !! ويموت كثير منهم في الطريق للأمراض التي تصيبهم بسبب حشرهم كالبهائم، فمن وصل منهم حيًّا فإن الكبير يباع ببندقية أو ببرميل خمر، وأما الصغير فيباع بمرآة!! وقد بلغ من مات من المستعبدين بسبب المرض أو سوء التخزين!! ستة ملايين !!.

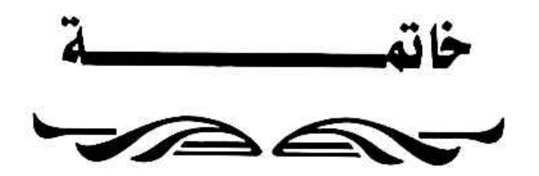
وذكر لي الدليل السياحي من الحوادث الشيء العجيب وتذكرت قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة:٧٤]، وتاريخ الغرب الأسود في استعباد عشرين مليون افريقي ينقض كل ما يتشدقون به من أن الحضارة الغربية هي التي أهدت للشعوب المدنية والحضارة، فإنهم كانوا وما زالوا يذيقون الشعوب سوء العذاب، ويتآمرون عليها ويكيدون لها، ويسلبون ثرواتها، بكل ما يستطيعون الوصول إليه من وسائل دنيئة بل دنيئة جدًّا، لكن كل الشواهد تدل على أن انتقام الله – تعالى– من الظلمة الغربيين قريب بل قريب جدًّا فالانهيار الاقتصادي والضعف

السياسي المصاحب له أول نذر الانهيار، وإن غدًا لناظره قريب.

وقد كان لي لقاءات أخرى عديدة في دكار وغيرها من مدن السنغال، ورجعت إلى بلادي سعيدًا بتلك الزيارة، سائلاً الله - تعالى- أن يكتب ما قلته وما فعلته في ميزان حسناتي، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

***

خاتمة



الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإنه بانتهاء هذا القسم الثالث ينتهي هذا القسم الأول من الذكريات الذي هو بعنوان «رحلاتي»، وسيتلوه القسم الثاني إن شاء الله تعالى، الذي لم أحدد بعد موضوعه لأسباب عديدة، وأرجو أن يشرح الله صدري لتعيين موضوع القسم الثاني قريبًا، ومن ثَمَّ نشره؛ فالمادة شبه مكتملة، لكن العوارض كثيرة، والعوائق عديدة، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به.

وصل اللّٰهم وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين،

والحمد لله رب العالمين.

ملحـــق الصـــور

ماليزيا





في مقر السفارة السعودية في كوالالمبور



سعادة الدكتور/ ماجد الماجد الثاني عن يساري

الأندلـــــــــس

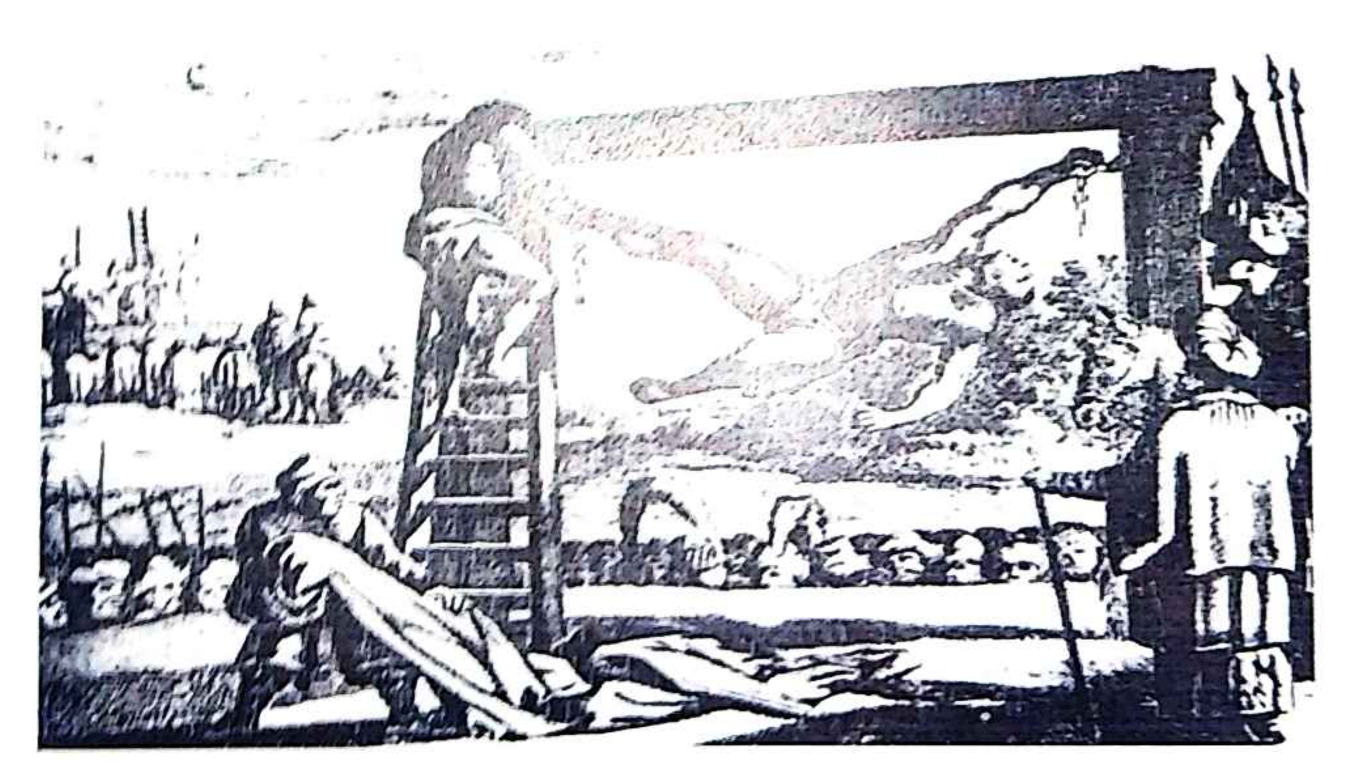




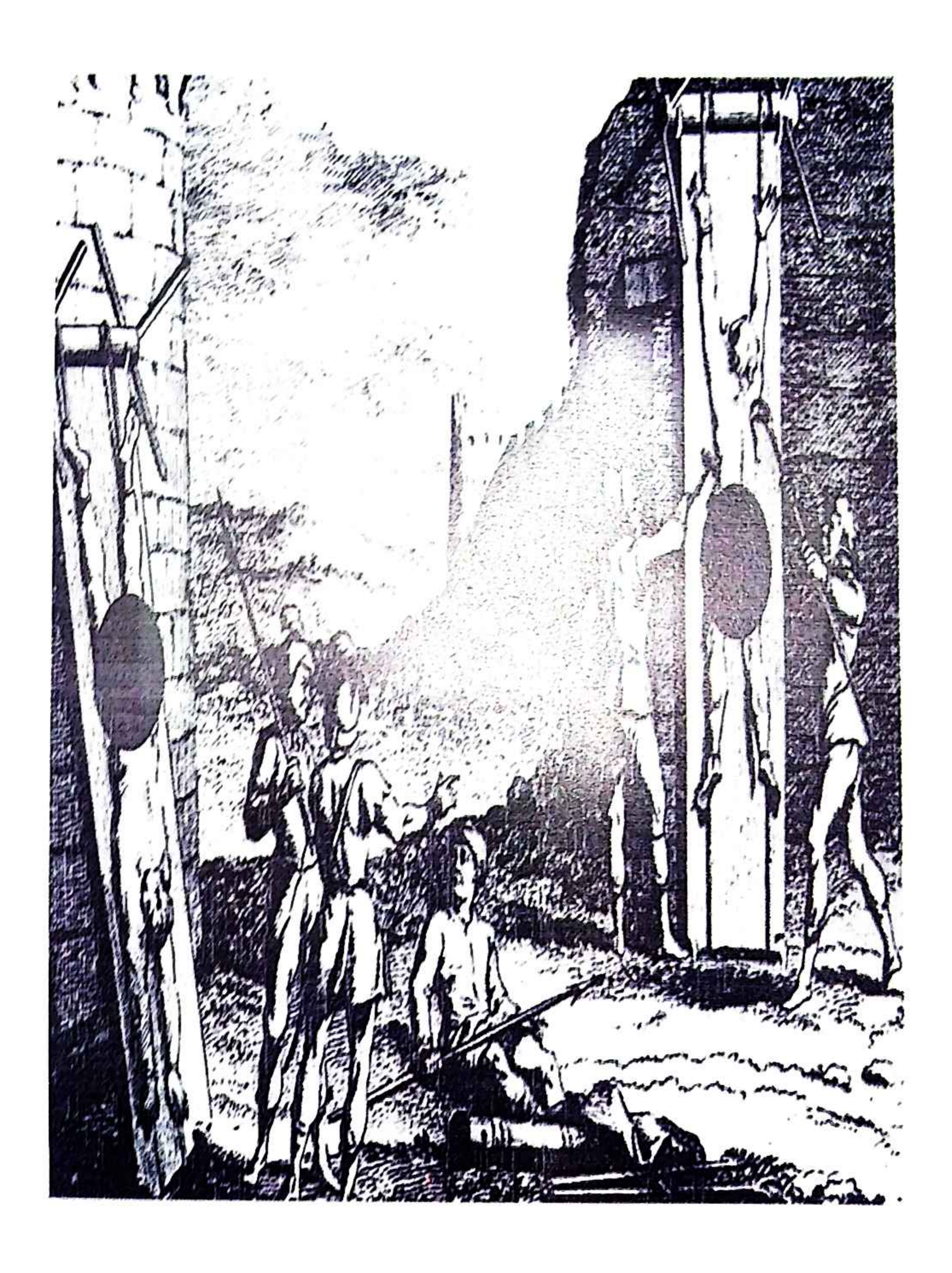
مع أخي الأستاذ/ محمد حسين



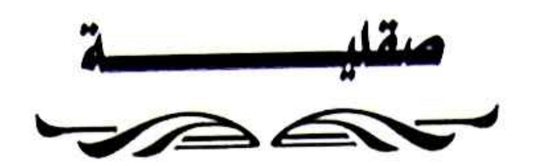




محاكم التفتيش في الأندلس



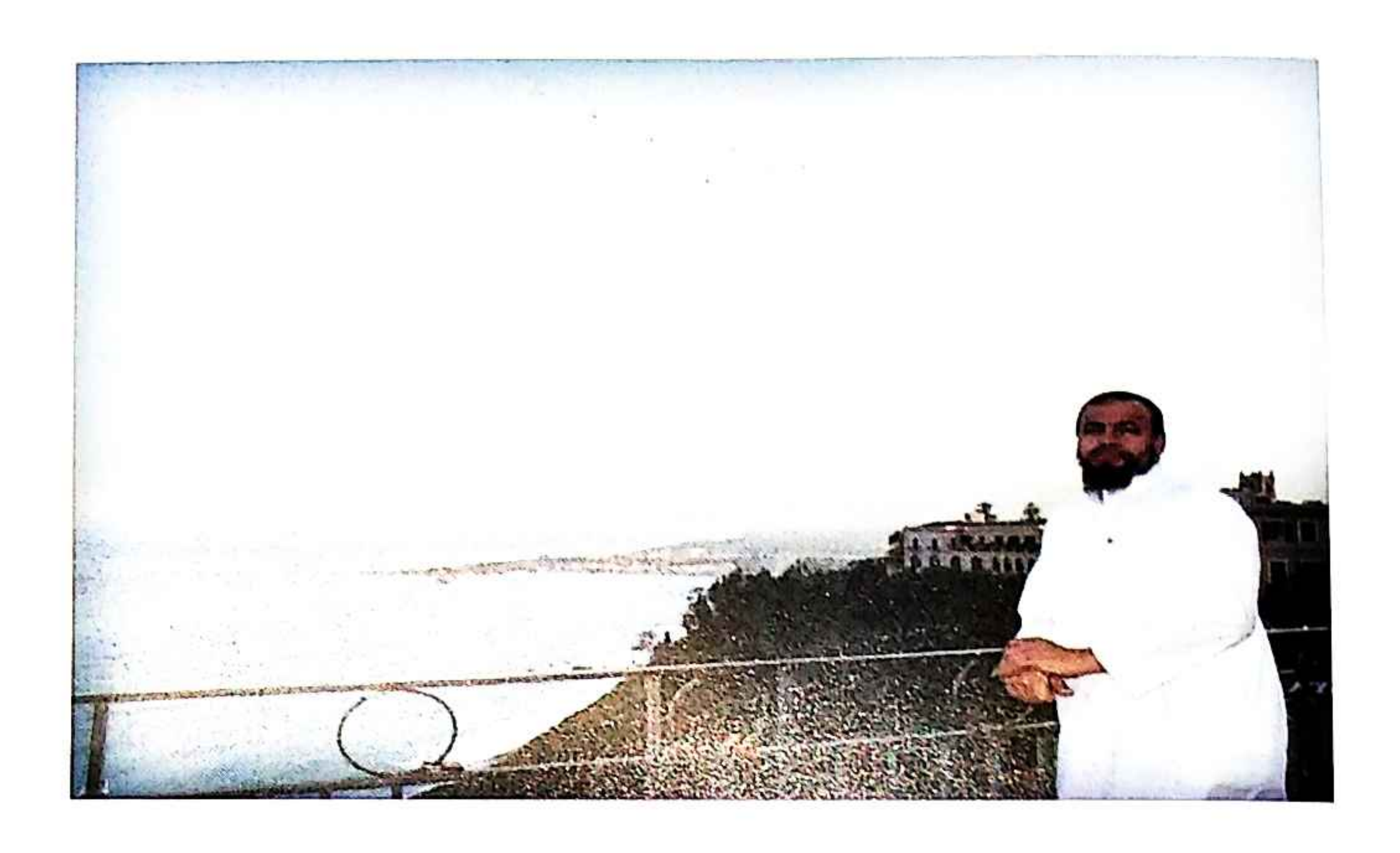
صقلية

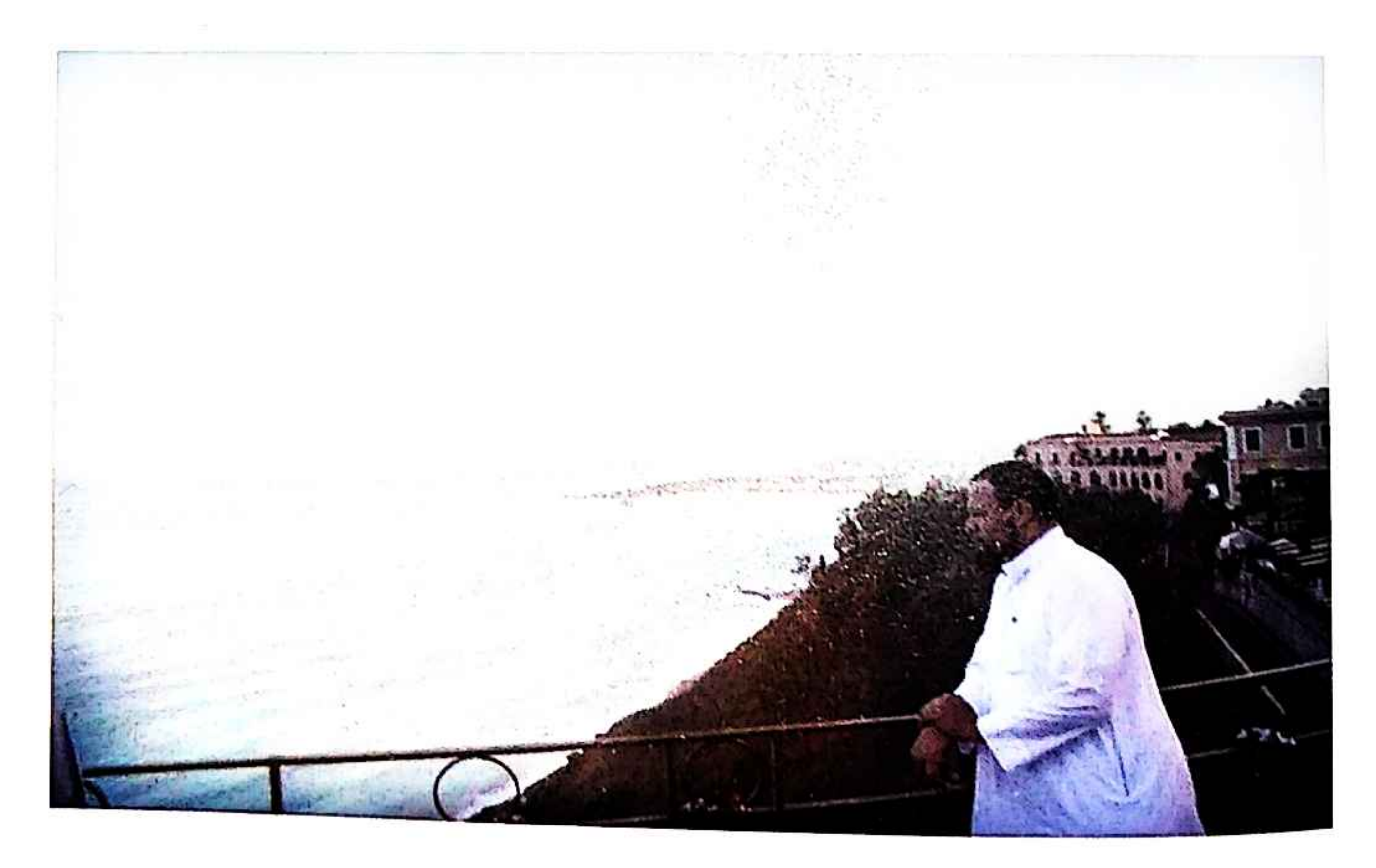




مع سعادة الأستاذ/ عبد الحفيظ في صقلية















مع الدكتور/ محمد اليماني

السنغـــــال

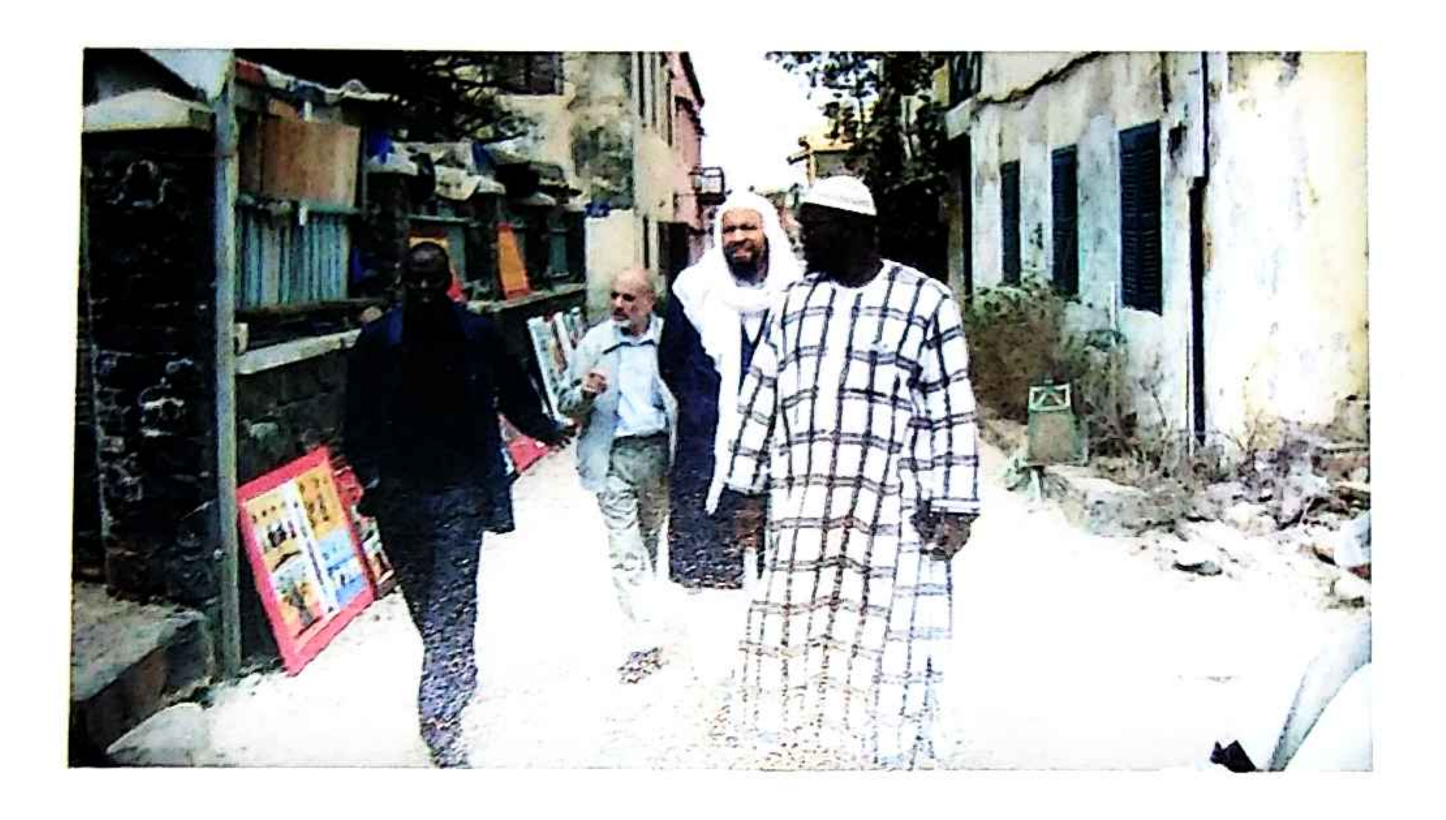




في جزيرة غوري وهي جزيرة العبيد



مع الأستاذ/ مالك صمب عن يميني













الفهرس

الفهرس